

روايات الهلال

الليل.. الرحم

محمد رومي

REWAYATAL — HILAL
NO · 456 DECEMBER 1986

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

Amly



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

تصدر عن مؤسسة

دار الهلال

العدد ٤٥٦ - ديسمبر ١٩٨٦

ربيع الثاني - ١٤٠٧ هـ

NO . 456 DEC . 1986

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية
مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد
اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر
دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم
عشرون دولار بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال
فى ج . م . ع نقدا أو بحوالاة بريدية غير حكومية وفى
الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .
وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة
اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من
سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر
سوريا ١٨٠٠ ق . س . لبنان ١٨ ليرة ، الاردن ٥٠٠ فلس .
الكويت ٤٠٠ فلس . العراق ١٦٠٠ فلس . السعودية ٧
ريالات ، تونس ١٦٠٠ مليم ، الخليج ١٢٠٠ فلس . الصومال
١٢٠ بنى ، لاجوس ١٢٠ بنى ، عدن ١٤٤ سنتا ، لندن ١٥٠
سنتا ، اثينا ٢٠٠ دراخمه ، كندا ٥٠٠ سنت . البرازيل ٦٠٠
سنت ، استراليا ٦٠٠ سنت ، السودان ٢٥٠ ق . سودانى .
المغرب ١٥٠٠ فرنك ، غزة والضفة الغربية ٧٥ سنتا ، داكار
١٠٠٠ فرنك ، اليمن الشمالية ١٥ ريالا ، ايطاليا ٢٠٠٠ ليره

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود قاسم



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

الديلم
الرحمن

تأليف

محمد روميش



دار الهلأى

الفشيد من الأفق الغربى

.. ثم توارى الجحيم ..
.. كانت تصبه الشمس ، فتصنع الحقل .. حقل الوسية الواسع ..
.. فرنا كبيرا ، يشوى مابه من ناس ..
ومن بعيد .. من حيث تلتقى السماء بحقل القطن .. اقبلت
نسمات .. تجفف العرق .. تعانق رءوس الشجيرات .. تموج
اللويزات المتفتحة بلونها الابيض الشاهى ، فيبدو القطن بحرا .. كبيرا
صاخبا .. يغطى الزبد صفحة مائه ..
.. وابتنست « ست ابوها » وهى تتخفف من الخرق التى تلفها
فوق رأسها وحول رقبتها عازلة اشعة الشمس من ان تحيل وجهها
التفاحى البشوش ، قطعة فحم ..
.. واطال ابراهيم تأمل ست ابوها ، واسقط فى قلبه ، ملاحظة
البنية .. ووقف بعينه على خديها المتوردين ..
- ست ابوها مش للفيط يا اولاد .. رآها بكرت فى داره ..
كنستها وجزءا من الحارة .. ملأت البلاص من التربة ورجعت فى
يدها حزمة حبا بحر .. اخضر .. معطر .. تقربه الى انفه .
- قوم يا ابراهيم الشمس علو الدنيا ..
- ياشيخه سيبنى شويه ..
- وحياة سيدى ذى النون م اسبلك ..
واعترضت ساق ابراهيم شجرتا قطن تشابكت فروعهما .. شق
طريقه وسط الاغصان المتشابكة .. احس اللسع ونقط دم صغيرة .
قانية .. متجمعة على ركبته .. مسح الدم بقطعة قطن دسها خلسة
فى عبه .. لتأخذ طريقها الى بوركشير . وسارعت ست ابوها تمد
يدها بمندبل اعتادت ان تلف به صابونتها ام ريحة .. تشمم
ابراهيم المندبل عميقا ، ورده .. التقط الحنو من عيني ست ابوها
.. رفع قامته ..
عندى .. من الورد
بستان .. ورد
بيطرح .. ورد

ونخادم .. الورد

بيسقى الورد

ماء الورد

سبع سنين السنة

حارس جناب الورد

... قفز لون وردى باسم .. صبغ وجه ست أبوها بخجل الياف

.. ارتعشت أصابعها الماهرة ، وهى تنتزع القطن من لوزاته ..

وبصوت خفيض .

- مش قلت لك يا ابراهيم ..

- قلت ايه ياست أبوها ..

- قلت لك متغنيش الموال ده ..

- ليه يات ..

- أحسن الناس .. بتعرف ..

- تعرف ايه ..

- م أعرفش ..

.. وانت ابراهيم المناسبة التى ينتظرها من الفجر الباكر .

- صحيح ياست أبوها ..

- صحيح ايه ..

- الواد عواد .. راح لامك .. ليلة امبارح .. عشان يخطبك

منها ..

.. اتسمت ست أبوها .. بعينها الاثنتين اطبقت على وجه

ابراهيم ، فى لقطة كبيرة .. وجه اسمر مستطيل .. جبهة مفرودة ،

عالية .. أنف طويل .. شعيرات رفيعة صفراء ... لمعت تحت

شمس العصارى فوق شفته العليا .. ورائها شاربا مبروما .. اكبر

من شارب زيدان الخولى ..

- اقول لك الجد يا ابراهيم ..

- أبوه .. قولى الجد ..

-- هو .. قابل امى ليلة امبارح .. قالت له .. صحيح يا عواد

بابنى .. انت عندك نص قدان ارض .. وعندك بقرتك فيها شوية

اللبن .. لكن مخيش عليك .. العيال بيحبوا بعض .. وانت عارف

نتى مقطوعة من سجرة .. عاوزه أجوزها لواحد .. بيعبها ..

وتعبه .. عشان لما أموت .. أموت مرتاحه .

- مقطوعة من سجرة ازاي ياست أبوها .. دأ كلام .. عيب ..

آنى، رقبتي لهذا التراب اللي تدوسى عليه .. مطرح م كنتى ..
.. ارتعش جسد الفتاة .. كاد يغلبها الدمع .

.. م انى عارفه كده يا ابراهيم .

.. لم تقم الشتمة التي جاءت من الخلف .. من زيدان الصعيدي،
ان تشوه بهجة الفرحة او تقلل من رغبة الصغيرين فى ان يلتقى كل
منهما رأسه على صدر الآخر .. فوق قبة الفرن ..
- يعنى ياد .. يامفوص .. مغيث غيرك انت والبت الصفرة
دى .. طول النهار ودوده .

.. فطى العرق البارد جلد الفتى .. ضرب قلبه بشدة .. داخل
صدره وهبط .. ضاق وجه الدنيا المعتد بلا نهاية .. الخسولى
زيدان .. ثور هائج .. لسانه اطول من الفرقلة واوسخ من نمل
البلغة القديمة .. يشتم ويضرب بالشوم .. وبالكف .. وبالرجل
.. وله ضهر يحميه .. « ملعون ابو الوسية .. من طاطا .. لسلام
عليكو .. »

- انت باعم زيدان .. مش عايز الخطين يجمعوا .. ويسبقوا
الخطوط ..

- متردش على يا كلب .. على « الحلال من دراعى » م تروح
سليم ..

.. ساد قيظ الوسية صمت جنازى .. تخدشه خرفشة
الاصابع .. تلتف حول اللوزات والسيقان تتخطى فروع الشجيرات
المجموعة .. ورجال يلمون القطن من الانفار الجامعين .. الاكياس
ترتفع وتربط فى طريقها الى مخزن الوسية .. صوت زيدان ..
يتنقل وراء الانفار .. هانجا .. يشتم .. يهتدد بانصرف وقطع
اليومية .. ويقسم بالطلاق من ذراعه اليمين بأنه لن يسبح للانفار
بالعودة الى دورهم الا بعد غطسة « الشمس » .

- اصل آنى عارفكم .. فلاحين .. م تجوشى الا بالكرباج ..
.. تلت ابراهيم حوله .. صف طويل من الانفار .. رجال الباد
ونسوانها وعيالها كلهم يرتعدون من اسم الوسية .. وينحسافون
زيدان .. يتحدثون عن طول زيدان .. وعرضه « كف زيدان » يوم
م ضرب احمد قلبه على الارض .. وعلى بن زيب خرق طيلة اذنه
لانه تجرا وممشاشي من قدماه يوم رى القطر .. »

.. تنفس ابراهيم كمدا .. حط على قلبه حمل ثقيل كالرصاص
سار فى دمه .. امتصته كل خلايا جسده الشاب .. تمزقت

أمامه الحيرة التي ركبته يوما .. لانه رأى بعينه أباه يقبل يد حضرة
العمدة .. والعمدة مجموس على المصطبة .. الشمس تنزف سيور
الدم في الجهة الغربية .. الصمت الثقيل .. يحط على الانفار ..
الانفار يقسمون بينهم وبين أنفسهم انهم لن يعملوا فى غيط الوسية
بعد اليوم .. لكن كلامهم يعلم يقينا انه لن يوفى بقسمه .
فجأة تصبغ فاطمة .. تلقى مايعبها من قطن مجموع ..
- مبروك .. مبروك .. يا ضنايا .. يا حبيبى ..
.. ينكسر الصمت الذى فرضه زيدان :
فمبروك مزلود فاطمة الصغير الذى تنيمه بجوار عود تيل كبير ..
جرجره ذئب جائع .. وانطلق الانفار .. ينهون يوما من حياتهم .
ويطاردون ذئبا بين أنيابه صغير منهم .

(٢)

.. الدق المتواصل على الباب يصل الى اذنى ست ابوها .. دفوفا
تتقدمها هي وابراهيم الى بيت العدل .. الدق يرتفع وهي تسرع
الخطو مع العريس الى القاعة التى فرشوا فيها حصيرتها الجديدة
وفى ركن القاعة الصندوق الخشبى المزركش احمر واخضر واصفر
.. بجوار « البوريه » .. لمحت حلة الاتفاق .. أحست بالخجل ..
وابراهيم يرارب باب القاعة ويسلم الرجال والنساء والاطفال المهتاجة
شاش الفلاح الابيض تنقشه بقع الدم .. ونسوة يغنين .. « شرفتنا
يا بنتنا بازينة .. »

« قولوا لابوها ان كان جعان يتعشى .. » ترتفع القلة الجديدة ..
وقبل ان يصل الماء الى فمها تهب مستيقظة متضايقه ظمأنة .. وتسمع
الدق على باب دارهم .. وكان ابراهيم بالباب ..

- خير يا ابراهيم .. خير ..

- مش باين ياست ابوها ..

وبها رغبة شديدة ان تقص عليه الرؤيا .

- ياخويا .. بيمك من زيدان .. ولا من بتوع الوسية كلهم ..

- مش من زيدان ياست ابوها .. الانجليز مع العساكر الهجانة

والفقر .. محاططين البلد بحالها .. ويلموا كل الرجاله .

- نخش .. اخيك فى قاعة الفرن .

- يادى الميب ياست ابوها .. استخى فى قاعة الفرن .. وبعدين

يجر جرونى .. وتبقى فضيحة فى البلد ..

- ياخويا يوم .. والا اثنين .. معلش ..

.. مقيش فايدة ياست أبوها .. وآنى بصلى الفجر .. سمعت
أنهم جايبينها من فوق .. م المنصورة بلد .. بلد .. عزبة .. عزبة
يلدوا الرجاله وشحنوهم ع المنصورة .. دول كمان بياخدوا الجمال
والخيل والحمير .. حتى الفراخ والدرة .. والشعير ..
.. يادى الخراب باولاد .. ليه ده .. هيه المنصورة اتخربت ..
.. منصورة ايه ياهبله .. انا سمعت أنهم بيشحنوا دا كله على
مصر .. وبعد كده محدش عارف .

.. يادى الخيبة .. ومين اللي هيشغل فى أرض الوسية .
.. وشد عساكر الهجانة ابراهيم .. وانتشروا فى باقى غurf
الدار الواسعة بارشاد شيخ البلد .. للتفتيش وخرجوا وليس بيدهم
سواه .. وثار رئيس الفرقة أحمر الوجه .. يتكلم بلكنة الخواجات
.. تجار القطن .. متسائلين عن الرجالة .. وأجمال .. والبقر ..
والخيل والحمير .. والحبوب .. ورد شيخ البلد بلسانه ويده
وجسمه .. ليس بالدار سوى امرأة عجوز وابنتها .. والبنت تعمل
باليومية .. فى أرض الوسية .. كل يوم برزقه .. لكن احمر
الوجه .. طلب أن تتبرع العجوز لمنظمة الصليب الاحمر ..
.. لم تفهم ام ست أبوها .. سوى أنهم حملوا مع ابراهيم ..
عريس انتها .. أجرة ست أبوها جمعة بحالها .. وأربع فرخات
بياضة .. ربطه سوده .

.. فى العصر .. ارتفع كالعادة .. دخان الكوانين .. يحمل
رائحة الروث الجاف المحترق ورائحة الملوخية والبامية والرجلة
والحميض .. وتراءى للرجال المشحونين فى العربات اللورى .. ان
دخان الطبخ .. حريق مكتوم .. يتصاعد لاعلى .. وتحملهم العربات
٢ . كل لمصير .. لا يدرية .

(٣)

.. فى غيبط القطن .. أمام الخولى زيدان .. ترمم الانفار ..
بلدى يابلدى .. السلطة خدت ولدى .. بلدى .. يابلدى .. انا بلدى
ارجع بلدى .
وينتهى جميع القطن .. وقطع الحطب .. وحرث الأرض .. وبدل
الحنطة .. ويدخل على قريتنا فصل شتاء جديد ..

(٤)

.. هذه السنة .. واجهت ست أبوها .. شتاء قريدا .. مع
حلول الليل .. وأندوام لله وحده .. يهل ابراهيم على كتفه لبشة

القصب .. وفي جيبه الفول السوداني ، وخرطة العجوة السيوى .
- سالخير يامه امباركه .. ازيك .

وينحنى على ام ست ابوها .. يصفحها ويقبل يدها .. سمراء .
جافة .. رقيقة الجلد .. معروقة .. والى جوارها يتخذ مقعده ..
تمسح بكفها على راسه .. تطبطب على كتفه :

- ازيك يا ابراهيم .. ازيك يا ولدى .. قومى يابت ولعى
الطاجن ..

.. الصغير يستعرض فتوته فى كسر اعواد القصب .. وتستغرق
ست ابوها فى اشغال النار .. ويتوسطهم الطاجن .. وتمتد الاصابع
تستدفىء .. ويملا الدخان قاعة الفرن من الارض للسقف ..
وترتشف الافواه الصغيرة العصير البارد .. ومن جيب الجلابة
يخرج ابراهيم لفة العجوة السيوى .. وفيما يشبه السر يدسها فى
يد امه .. ام ست ابوها .. خالتي امباركه ..

- وخدى كمان يامه .. حنة الهريسة .. دى .. اصل انى عارف
سنائك مش حمل القصب ..

.. وعلى ضوء اللمة ام فتيلة .. المختنقة بين سحابات الدخان
.. تبدأ الام فى .. الحكى بعد تمنع منها وحلفان من ابراهيم ..
- يا ابراهيم .. يابنى .. حكايتنا .. عواجيزى .. قولوا انتوا
حكاية من حكايات الايام دى ..

.. ويعرف ابراهيم ان فى يده ورقة رابحة .

- وحياذ سيدنا النبى يامه تحكى حكاية .

.. تمهل ست ابوها ضاحكة .. هى تعرف مشاهد السهرة
مشهدا .. مشهدا وذلك لا يمنعها من الضحك .. بل ان تحقّق
ما تتواضع .. على النحو الذى توقعته تماما .. يدفعها .. اكثر ..
الى الاغراق فى الضحك .. وتبدأ الام من حكاية ست الحسن والجمال
مع ابن السلطان والشاطر حسن .. والغتاة عنيبة التى خطفها الفول
وعاشت جارية فى قصر معزول حال ..
.. وتبدأ الام .. دائما ..

- صلتوا .. بنا .. على سيدنا النبى ..

وتلتقى عيون .. ابراهيم وست ابوها .. وتفرج النساها ..
ويتأخر الجواب عن الام .. تتفاضب وتقسم بحياة سيدى ذى
النون .. انها لن تحكى هذه الليلة .. ويسرع الصغيران ..
- اللهم صلى على سيدنا النبى

وتعاود الام .

— كمان زيدوا .. النبى .. صله .. وحياة سيدى ذى النون ان
م زدتوا .. النبى صله .. مانى فتحه جنكى .. اصل جيل الایام
دى كده ..

وتصمت الام قليلا .. ثم تبدأ بتؤده واحترام ..
— كان .. ياما كان .. مايحلى الكلام الا بذكر النبى عليه السلام
.. كان .. فيه ..

.. ويحدث كثيرا ان يغلب الام .. النعاس .. فتغمض عينيها
نصف اغماض .. وينخفض صوتها مع قليل من البحة ..
— كمان زيدو النبى صله .. كان فيه .. يا اولاد .. كان النوم
سلطان ..

.. وتصحو الام على صوت قهقهة نشوانه ..
— الله يجازيكو .. يا اولاد ويجازى شيطانكم .. سمعنا ياواد
ابراهيم موال .. بس يكون مدح فى سيدك النبى .. مش من مواويل
الایام دى ..

.. وكله خجل حقيقى .. يتمنع ابراهيم .. وتلح ست ابوها هذه
المره .. ويتنحج ابراهيم .. ويجرع كوز ميه .. ويغمض عينييه
قليلا ..

عندى من الورد

بستان ورد .

لكن فى هذه السنة .. واجهت ست ابوها .. شتاء فريدا ..
يدخل الليل .. وهى من المغرب ممددة الى جانب خالتي امباركه ..
تتقلب على الجنب اليمين مره .. وعلى الجنب الشمال مره ..
وتهب فزعة من حلم القهاها فى بئر عميقة .. وتعود تتقلب على الجنبين
وتحك تحت اطها .. وتسمع صوت الشيخ حلموشى يؤذن الفجر
فلا تسمعه .. وتهز امها .

— احناامته يامه ..

— ياست ابوها نامى .. لسه كثير عن الفجر ..

وتنام ست ابوها .. ويتعارك ابراهيم مع زيدان الخولى ..
وينشق الدم من جبهة ابراهيم وتأخذه على صدرها تجفف الدم
وتربط جبهته بالمنديل ابو ريحة .. وتفزع وتقنعه ان يبقى المنديل
حتى لا يصفى العرج دمه .. ويغض فار كبير الاصبع الوسطى من
يدى اليسرى ويستيقظ .. وتتقلب على الجنب الثانى .. وتعود

مشاهد الحلم الكبير .. مرة تركب هودجا ويتهادى بها الجمل حول
البلد .. رمرة النسوة والفتيات يسبقنها وهي تخطو الى جوار
ابراهيم حول البلد في طريقهما الى بيت العدل .. القاعة .. الخصرة
الجديدة المنقوشة مرة .. وساده مرة .. وحلة الاتفاق داخلها ذكر
البط فوق البوريه .. وابراهيم يخلع جلابيته الدبلان البيضة ..
دكة اللباس الحمراء المجدولة من خيوط الصوف تتدلى بين فخذيه .
مرة تجلس القرفصاء على الخصرة بجوار المخدة .. ومرات هاربة
منه فى ركن القاعة .. ودائما يوارب ابراهيم الباب ويدفع بالشاش
الابيض المنقط بالدم الى الناس المنتظرة على الباب .. وتصحو قبل
ان يبلغ ماء القلة شفتيها .. وتتقلب على الجنب الثانى .. تذكر
النسوان اللائى حدثنها عن ليلة الدخلة ..

- زى قرصة الدبور ..

- يا بت باست ابوها .. اخذ الوش زى قرصة الدبور .

- يا شيخه حرام عليكى .. ه .. تخوفى البت .. والنسبى باست
ابوها .. دى .. زى قرصة البرغوث ..

- يا بت ماتخافيش .. لا برغوث ولا دبور .. ولا ه .. تبقى
حاسه بحاجة .. ومن داق غسل الخلايا يصبر لقرص النحل ..

- اقول لكم .. ان كانت ست ابوها بتحب ابراهيم يبقى زى
قرصة البرغوث .. وان كانت بتكرهه . يبقى زى قرصة الدبور ..

- ان كان كده .. ست ابوها مش .. ه .. تحس بحاجة ..
- يادى الكسوف .. دا انتو نسوان .. بجحة صحيح وحياة

سيدى ذى النون ..

- آل يعنى آل .. يختى اللى يخاف من العرسة ما يربيش
فراخ ..

.. ويضحك ابراهيم .. وتفنى النسوة

شرفتينا بابنتنا يازينه ..

.. وحدث ان كانت تزف الى ابراهيم .. وهتفت لنفسها وهي

نائمة .. يا بت ده حلم .. ياست ابوها .. انت بتحلمى .. وتصحو

فارغة تماما .. شئ قاس يمسك بصدرها من الداخل .. لا يسمج

لها حتى بان تحزن او تبكى .. تصحو مخنوقة .. تنهج كانها قادمة

من مشوار طويل .. تود لو تبكى .. لو تطلق دموعها تفرق الدنيا

بحالها ..

- امه .. لسه اد ايه عن الفجر .

- خلاص يابنتى .. الشيخ حلموشى ه .. يسسبح كمان
شويه ..
- يمكن خدته نومة .
- استغفر الله العظيم .. يا بنتى دا .. الملايكة بتصحيه عشان
يدن الفجر ..
- الليلة دى مالهش آخر .
- استغفر الله العظيم .. يابنتى مادايم الا وجهه ..
- لكن يامه .. هو الواحدة تحلم انها بتحلم ..
- اللهم آخربك يا شيطان .. ه .. افتى يابنتى فى اللى ماليش
فيه .. صباح رباح نسال الشيخ حلموشى ..
- أووه ..
- ماتنفخيشى ياست ابوها .. رزقك ع اللى خلقك ..

- ٥ -

... بعيدا عن سوق الثلاثاء فى المنصورة .. وعن سوق الخميس
فى السنبلاوين ..
حتى عن سوق الاربعاء فى طنطا .. آخر مايصل اليه النابهون
والرحالة الكار من رجال قرية تلبانة ..
.. بعيدا عن ارض مصر .. كانت نجمتان تبهتان ببطء فى الجهة
الشرقية .. وتباشير ضوء كاب - تنبعث من بعيد .. وانطلق دوى
صفارة كتيب .. افزع الرجال النيام او المهدودة .. تحس كل منهم
قاسه ومقطفه .. انتزعوا انفسهم من رقدة ابدية . طوابير يتحلق
كل خمسين حول ريس - يوزع عليهم زاد يوم .. وتفرقع السياط
فى الهواء .. وينطلق الرجال الى الجبل .. جبل عال ، أعلى من
النخلة مرة .. مرتين .. قل ثلاثة .. تضرب الفئوس بطن الجبل ..
الاكتاف العربانة تحمل المقاطف تفرغها بعيدا .. المقاطف الصغيرة
تصنع تلالا فوق الجبل وتخلى ضربات الفئوس سكة مشقوقة فى بطن
المستحيل ..

.. فى المقدمة .. وفى أعلى الجبل .. وقف وجه احمر آخر ..
كالذى خطف ابراهيم من فوق قبة القرن ، يرسم ببال رائق عرض
السكة المشقوقة .. ويتقدم « ريسه » كبار .. يفسرون ويشرحون
الى « ريسه » اصغر .. كلمات تنتقل من لسان الى لسان حتى
تصل الى الفعلة فئوسا تضرب .. ومقاطف تحمل .. وتلالا صغيرة
تنشا .. وتحبو .. وتكبر على جانب السكة المشقوقة .. الرجال

الفعلة .. السفيلة .. موجات زاخرة .. كالعاصفة فى بحر بلا نهاية او ان آخره من الجهة الاخرى التى وقف عندها المهندس الانجليزى يرسم عرض السكة المطلوبة لتمتد فوقها خشبات ترمى عليها قضبان حديدية .. يقيسها انجليزى آخر .. ويشير لمن يربطون السامى القلاووظ الكبيرة .. وتمتد سكة حديدية تربط جنوب الشام بشماله .. وينقل الانجليز جيشهم مارا وسط جبل لا تبلغ اعينهم مداه .

الذى يشق الجبل .. لا يعرف ماذا يدور .. فالفأس ترفع وتهوى والمقطف يلتقى فارغا ويحمل طافحا .. ورافع الفأس وحامل المقطف وربما ريسهم الصغير نفسه .. لا يرون اكثر مما تحت اقدامهم .. الجبل معتمد .. فيما يراه .. بلا نهاية .. السوط فى يد الربيب يبدو اقل من الجبل .. وهو قد قطع كل ما بينه وبين الدنيا من صلات ، يد الفأس .. وحمل المقطف .. هما ضمان الحياة فى هذه البقعة القريبة من الدنيا الواسعة التى لا امان لها .. يوقظونه فى الفجر .. لا يقضى حاجته .. لا يفرغ امعاءه .. كوز ماء يستلمه ربا ليوم طوله الف عام .. كبشة عيش زادا ليوم ليس له آخر . حتى السوط الذى يشق جسده غدا لازمة من لوازم العيشة .. شئ واحد يرهيه رافع الفأس وحامل المقطف .. ان يضعف .. ان يهن .. ان يرقع الفأس فلا تكسر الجبل القاسى ان تنخ كتفه وتنوء فلا تحمل المقطف ويصنع التلال التى تملو وتفصل بين عالين .. هنا حقيقة واحدة .. يعرفها يقينا .. يعرفها بجسده .. بعروقه .. بالنبض فوق صدقيه تحت الحمامات الموشومة .. حقيقة يعرفها بجسده وينكرها بعقله .. هو لا يصدقها وان كان يعيشها .. انه يعرف نكبانة كله .. مصيره .. اذا تخلخل فلم تشق الفأس ولهم يحمل المقطف .. سيحملونه .. سيحمله هؤلاء الانفار الذين يحادثهم ويشكو لهم .. سيحملونه ويقذفون به حيا وراء التلال التى تصنعها المقاطف فوق الجبل . ليموت مفزوعا .. على مهل .. ببطء .. بانتقام .. ومن العالم الثانى .. عالم ماوراء التلال .. ينبعث منه الفحيح .. وتصعد الاهات والانين .. واحيانا صرخات مكتومة واستغاثات ضائعة .. وهمهمات خافتة ونداء للام تمتصه الريح الباردة .. واشارة اللففة الى شربة ماء .. وينفاب نصف الحى على ميت هو الاخر وجهه مفزوع القسمات عيناه تحملقان فى فراغ موحش .. فمه مفتوح .. الشفاه بيضاء

مشقوفة .. وتصفر الريح ويسيل المطر .. وبصنع الثلج طبقة
هشة .. تتلوى تحتها الاجساد .. وتكسو ما وراء التلال ، رائحة
حياة تموت وموت يتنفس .. اجساد تتقلب على جثث .. وفوقهم
يتدحرج قادم جديد هذا شق الجبل .. واثان احرقه العطش طفع
جردل عرق واستنفذ صنوف الحكمة فى استخدام لتر الماء الذى
استلمه فى الفجر وانتهى لتر الماء ولم يكف الجسد الحى عن نشع
العرق .. وسقط ولم يبيل شفثيه .. واستقبله عالم ما وراء التلال
وهمس حاملوا المقاطف لحملة الفئوس .

- وسمعت يا احمد .. يقول .. شفثه ميه .. حد يبيل
شفثي ..

- وعملت ايه ياناشد ..

- الكرباج شق كتفى بنص ضهرى .. وخذت المقطف ونزلت ..

ويعود الرجال الذين يحملون المقاطف بروءاهم القائلة .

- بعينك يا بدر اوى .. شفث الميتين مع الحيين ..

- انت مش مصدق .. وحياة دى الليلة ومساها .. وحياة

من جمعنا من غير ميعاد يا شيخ صعيدى على بحر اوى .. شفث

واحد ميت مطبق بصوابه على ذراع واحد حى .. وده بيحك فى

صوابع الميت .. م قادر ..

- ياتاس دا حرام .. يعملو جبانة للميتين .. وجبانة للحيين ..

والاجساد الساخنة وسط الصقيع والهواء البارد الذى ينشف

الطوبة - لا تكف عن طفع العرق .. الشفاه تجف .. الحلق

تجف .. كل خلايا الجسد تعتمر ، ولا تكف عن طفع العرق ..

.. الشمس تتسلط عامدة متعمدة .. لبرد ينفلذ كالمسامير

المحمية فى النار .. ولا تكف الاجساد عن طفع العرق ..

- لكن ياواد يا عواد .. احنا فين ..

- وحياة غرشنا يا ابراهيم .. انا تايه ..

- من فين جابوا الناس دى كلها ..

- م البلاد يا ابراهيم .. شوف .. من بلدنا لوحدها طلوعوا كام

راجل ..

- لكن يا عواد .. فين رجالة بلدنا .. دول شحنوا من بلدنا

لوحدها .. اكثر من عشر عربيات ..

- سالت الرئيس صميذة .. قال .. ان رجالة البلد الواحدة ..

يوزعوهم على فرق كثيرة .. دا غير اللى بيروهم ورا التل ..

- بتعرف تحدث الرئيس صميذة يا عواد .. انت ياواد .. عمرك

شاطر .. يماكت بتروح سوق السنبلاوين تشتري عجوه ويستفندي
وقول سودانى ..

- دا .. انت اللي م لفتش بأبراهيم .. دا بنى آدم .. زبى وزبك
تمام .. يطلع علة الدخان ويلف السجاير .. ومرة عزم على بواحدة
.. وياما كلمته .. ويقول ياعواد .. يابحراوى ياخرج .. ومرة
قال لى .. احنا ياواد يابحراوى اكثر من ألف ريس .. جول الفين
كل واحد تحت ايده جول خمسين فواعلى .. وسواى فيهم هنود
والهنود دول فيهم سيك ومسلمانى .. ومرة شورلى على واحد كان
ماشى زى جزع النخلة .. وقال لى انت شايف ياد يابحراوى ياخرج
الى ماشى ده .. قلت له ابوه ياعم الرئيس صعيده .. قال وحية
سيدك عبد الرحيم الجناوى .. ده استرالى ..
- ياواد ياعواد .. الدنيا واسعه ..

على ان ابراهيم لم يهمس الى عواد عن الشيء الثقيل الذى يربض
فى اعماقه .. لقد شب على انه ليس من الحكمة ان يقص الحلم الا
اذا كان يبش بخير .. فالحلم يتحقق بتفصيله فى كلمات محددة
تخرجها الشفاة ولم يسمع امه تنطق كلمة « العرسة » التى اكلت
الكتاكت الصغيرة .. انها تسميها « المخسوفة » ان المسافة
مرفوعة بين الكلمة التى وضعت للدلالة على الشر وبين الشر
ذاته ..

.. فى القاء البعيد لنفس ابراهيم .. يكمن خوف قاتل ..
خوف يحفل ابراهيم ان يتحدث عنه او يشير اليه .. فالحلم بأشياء
سيئة يتحقق بحكاية الحلم .. صورة الجبانة الغريبة التى تقع على
مراى بصر من ابراهيم .. يزيحها عن مخيلته .. فتعود اليها اكثر
وضوحا .. الاموات تتقلب على الاحياء .. ابراهيم يضرب الفأس
بقوة يبعد عن فكره .. موت صلحى صاحبه فى الحارة وفى شيل
السباح وجمع القطن وتنقية الفلت من قيطان القمح والسهرات فى
مولد سيدى ذى النون .. وان يموت الصديق الاعمار بيد الله ، بيده
كل شيء .. اما ان يلقي صلحى حيا يستقبل ربا كريما فى هذه
الجبانة .. فاراهيم يكاد يزيح بيده الفكرة عن دماغه والى السواد
سليمان بن عم جرجس النحال وطاقيته الدبلان البيضة .. فينك
يا سليمان ..

فات شتاء منذ شحنتنا الغرباء فى عربات لا تستجيب لتضرعات
راكبيها وتعود الى تراب تلبانه .. اما ان يقدفوا ابراهيم حيا وراء

التل .. ففكرة لا يكاد يصدقها .. فكرة يقاومها بالفأس تضسرب
 بطن الجبل .. وهو كله شغل يابو خليل .. في غيطان الوسية ..
 في جبل الانجليز .. في أرض العمدة الحرامى ابن ستين .. كله
 شغل .. كل شغل .. وبش آدم .. غلا .. أو نزل .. نصيبه كلاء
 لقمة عيش .. هدمة تستر جسده .. والآخر حنتين قطن على فمه
 وراء ضهره .. لكن الناس الانجليز .. اليه بالقطاره .. عيش وأقله
 يكفى لكن الشرب .. والنوم .. حرام .. حرام الشغل من النجمة
 انص الليل .. ياما لعنت الشيخ حلموش يابو خليل وصوته الخشن
 المبجوح يوظك لصلاة الفجر .. اخترعرا ولاد الكلاب .. الصفارة
 الملعونة .. والرئيس صميده .. رجل لا فى قلبه تقوى أو ايمان ..
 حرام عليك باريس صميده .. غسيل الوش .. قلنا .. نستغنى ..
 لكن يارجل اليه المحبوسة طول الليل فى البطن .. مفيش دقيقتين
 نفكها .. على الحرام الخولى زيدان نفسه .. الله يعافيه بالعافية ..
 ماكان يقدر يحوشنى مفكش اليه .. لكن معلش .. يابو خليل
 فين كلام الشيخ حلموش فى خطب الجمعة .. أيها الناس ما يصيبكم
 الا المكتوب لكم فى اللوح المحفوظ .. واللى يتبلى ببليه .. تكفر عن
 ذنوبه .. والله وحشتنى باشيخ حلموش .. سامحنى .. ياما نعست
 وانت ماسك الورق فى ايدك وبتخطب خطبة الجمعة .. وده ذنب
 كبير يابو خليل .. والواحد عليه ذنوب .. متعشش وادى احنا
 بنكفر عنها ..

مع اختفاء الخطوط الحمراء بعد غروب الشمس .. أحس ابراهيم
 بفراغ داخل ركبتيه لم يلق له بالا .. واصل طعن الجبل بفأسه ..
 يرفعها أعلى من رأسه بحديدتها التى فى حجم دماغ طفل فوق المشط
 الذى يفوس .. ويملا المقطف ليحمله من يصعد به الى أعلى التل
 .. ويرفعها ليملا المقطف الشسانى .. والثالث .. مقساطف
 بعدد شعر الرأس .. ويصعد الالم الى صينية ظهره .. والمقطف
 يلقى فارغا لم فع مليئا .. والفأس ترتفع وتنزل .. وينشر الالم
 فى ذراعى الفتى .. والفأس ترتفع وتنزل ومقاطف ترمى فارغة
 وتشال طافحة .. والظلام يسقط ببطء وتقاد الفوانيس والكلوبات
 وتراقص خيالات الرجال والفتوس والمقاطف فى عيني ابراهيم ..
 وتدق عروق دماغه تحت الحمامتين الواقفتين أعلى صدقيه .. ويرفع
 الفأس وتبدو رأسها الحديدية اكبر من قبة سيدى ذى النون ..
 - واد ياهمام ..

- أبوه يابراهيم ..
 - انا حاسس اننى تعبان شويه ..
 - اجمد بابو خليل ..
 - امته .. ه .. يخلص النهارده ياواد ياهمام ..
 - لسه بدري بابو خليل ..
 - ياواد ياسمام انا داىخ ..
 - أعوذ بالله .. اصبر شويه ..
 - مش قادر اشيل الفأس ..
 - اقول لك على شوره ..

انت شايف شجرتين الينسون .. اللى هناك دول ..
 وبين شجرتى الينسون الكبيرتين ..لقى ابراهيم بجسده .. لم
 ينمس .. اسلم جسده لاه الارض .. يتنفس فوقها كما يتنفس
 ورق الينسون .. وكما تتنفس دودة القرضة .. والسحلية التى
 تحمل مفتاح الجنة وترقد تحت جنبه .. وكما تتنفس حفات التراب
 الرطبة التى تظللها غصون الينسون ..
 الخولى زيدان يشد على يده .. والله حمد الله ع السلامة ياواد
 يابراهيم ..

وامه .. خالتي أم ابراهيم .. تحتضنه وتبكي غير مصدقة ..
 مش مصدقة بابراهيم يا ضنايا ياسيدى ذى النون له دستتين شمع ..
 وابلة لاهل الله .. يقرأ فيها الشيخ حلموش عشان رجعتك ليه
 بالسلامة ..

ست أبيها قادمة .. من بعيد .. تغطى وجهها .. و .. صوت
 غريب عن مجتمع شجرتى الينسون ودودة القرضة .. والسحلية
 وزيدان .. وخالتي أم ابراهيم .. وست أبوها صوت باتى من أغوار
 مجهولة .. وتقلب ابراهيم ويزيح عن نفسه اكوام التعب والنعاس
 وتقلب على جنبه الثانى والصوت يتضح اكثر .. فاكتر .. ويفزع
 ابراهيم .. وفتح ابراهيم عينيه .. ووقعنا على حافرى حصان ..
 وشال بصره الى اعلى .. وتحلت امامه الرؤيا المخيفة .. انجليزى
 على ظهر حواده .. نزل الراكب .. رطن .. شد كف ابراهيم اليمنى
 وقرا رقما مشتتا على قطعة حديد تلتف حول معصمه كساعة اليد ..
 انطلق الحصان بالراكب .. حمل ابراهيم فأسه وجرجر هواجسه
 ومخاوفه التى مزقته الى فرقة الرئيس صميذة .. وكله ينتفض
 بالفزع .. حكى لعواد ..

- .. أنا خايف يا عواد ..
 - .. الخوف من الله ..
 - ه .. بموتوني يا عواد ..
 - يا شيخ قال الله ولا قالك ..
 - نفسي اشوف امى .. يا عواد ..
 نفسي يا عواد .. اشوف بلدنا قبل مموت .. سجرة الجميز
 الكبيرة .. أبو قردان .. وأبويه ..
 أنا كنت بخاف من ترب بلدنا .. لكن الوقتي .. ياريت ادفن
 فيها ..
 - يا واد يا ابراهيم سلامتكم م الموت .. وحياة دى الليلة يا ابراهيم
 انت عندي اعز من نفسي ..
 - أنا عارف يا عواد .. وعاوز اقول لك حاجة ..
 - أنا تحت أمرك .. قول ..
 - ست ابرها يا عواد ..
 - وحياة سيدى ذى النون .. هترجع لها سالم ..
 - آنى عارف يا عواد .. قلبى حاسس .. أجوزها .. ست ابرها
 .. يا عواد لما ترجع البلد ..
 عواد يرتج جسده كالمحوم .. ويضع كفه على قم ابراهيم بمنم
 شر الحلم ان يتجسد فى كلمة وكلمة عرسة تفتال صفار الفراج
 كالعرسة ذاتها ..
 - أجوزها يا عواد .. دى طيبة .. قلبها أبيض زى اللبن الحليب
 .. باما كان فى نفسي .. انى مش كنت بحبها زى م واحد يجور
 .. كت بعزها زى امى .. اختى .. واحد صاحى .. دى -
 غلطانة .. باما شافت كان فى نفسي أريحها شوية من غيطان الوسية
 قلباته .. ملهاشى حد تحم أمها ..
 - كفاية يا ابراهيم ..
 - أنا بقول لك أجوزها .. عشان عارف انك بتحبها ..
 - ..
 - ... نهرب قين يا عواد .. احنا قين .. ويمسكونا بدل م يبقى
 واحد بقى اتنين ..
 بات الفرج فى قفص الثعبان ..
 فى الفجر .. لم تسق فرقة الريس صميدة للعمل ..
 .. الشمس العجوز كسا شروقها سحابات كثيفة سوداء ..

فرقة الرئيس صميذة تقف حلقة .. فى وسطها انجليزى ببسطلته
المصوفية الصفراء داخل معطف ثقيل مصطف ازرارته من تحت الرقبة
الى ما بين المساقين .. تزين اكتافه وصدره نياشين مجهولة الهوية .
قدماه غاطستان فى شرايين من الصوف .. الحذاء لامع كالبسقة ..
الاحذية حلقة ناعمة .. الشارب مثلث قاعدته شفة رفيقة .. يعبر
بلسانه عليها يسمح آثار آخر كوب من زجاجة ويسكى كبيرة ..
ينهى الشارب تحت انف طويل كالبلحة الوارمة فى لكنه متكسرة ..
كالخواجات تجار القطن .. اعلن ان ابراهيم سالم .. من فرقة
الرئيس صميذه والذي يحمل رقم ١٩١٧ .. نفر كلان .. وثبت
انه هرب من الخدمة .. ونحن فى حالة حرب كبيرة .. وقيادة المعسكر
قررت جلده مائة جلدة .. عقوبة له .. وتحذيرا لغيره .. والقيادة
هذه المرة قد استعملت الرافة ..

.. وسحبوا فتانا ابراهيم سالم الذى يحمل رقما لا يعرفه ..
ادخلوا رأسه فى فتحة خشبية ضاقت باستدارة الرقبة .. شدوا
يديه الى الامام .. قوسوا ظهره .. ووقعت الطاقية الصوف الحمراء
المشفولة بالفرزة ومرت هبة هواء باردة هزتها .. ولم ترفعها يد ..
وظهرت البقعة السوداء على جنبه الابر .. وحمة ام ابراهيم فى
حفنة غسل اسود .. ومرت هبة هواء ثانية باردة .. فحركت شعر
« الاصة العايق .. » ورفع صميذة يمينه بالسوط مزحوما بالزيت
ثقيلا .. وصرخ ابراهيم .. وصرخ .. وارتفعت الانات .. لم بسممها
سيدي ذى النون صاحب الشمع الذى لا ينطفئ .. وارتفعت الانات
.. والاوراق المقدسة فى يد الشيخ حلموش على منبر الجمعة ..
وخفتت الانات .. تدأت رأس ابراهيم .. العمد مستمر .. ستين ..
واحد وستين .. اثنين وستين .. وانتفض الرجال الواجمون ..
الساكتون .. وحمله بعضهم حملة عواد .. واستقبل ابراهيم ماوراء
النل ..

(٦)

.. خمسون سنة ..
.. تنقص سنة .. سنتين .. تنقص عشر سنوات ..
.. قل تنقص خمسين سنة .. نحن لا نعد بالارقام ..
.. نحن فى حوارى تلبانه .. قريتنا .. غيطانها .. وسككها
واشجار الجميز .. وابو قردان الوفى وحميرها التى تدب بأقدامها
متمهلة متباطئة .. تحرك الرقبة وتهتز الاذان الطويلتان المتدليتان

اهتزازة وقورة .. تصنع مع دبيب الحوافر المتمهلة قطعة بالية
شجيرة .. تقول ان المصريين لم يتموا بعد رغم تعاقب فصول الفيضان
.. بناء الهرم الاكبر .

(٧)

الشمس على مهل تصنع يوما جديدا . نورها يكاد يمس أعالي
شجر الجازواين والكافور .. سطح التربة تتصاعد منه بوخة كالتي
تصاعد من حلة بامية تغلى رفع غطاؤها « خالتي الست » تشق
طريقها .. تبين بوضوح آثار قدميها فوق التراب الذي ختمه
ما أمتصه من ندى .. قشرة التراب الرطبة تملأ بحنو الشقوق
المفتوحة في كعبي خالتي الست . الشمس تملو من وراء غيط الدرة
.. قطرة ندى تلمع خضراء حمراء صفراء على ورقة حلفاء مدبية ..
أوراق البشنين المفرودة كالرغيف تنتشر على سطح التربة ..
وتقفز فوقها ضفدعة .. أعواد النسيل الخضراء تمتد على الحافة ..
شجرة السنط العجوز تميل بجذعها على قلب التربة وتصل الى
قرب البر الثاني ويتخذها الفلاحون الخبء قنطرة .. جنيئة العمدة
القديمة تقذف خالتي الست برائحة الجوافة .. قوبة نفاذة ..
نور الشمس يسقط على ورقة الجوافة الخضراء الداكنة وتبرز حبات
الجوافة .. بقعا صفراء .. للعب يزحف الى قم خالتي الست
وتفرق لسانها .

- سبحان الدائم .. عادت جنيئة الاصلاح
- اشوح واحدة ياعم جبرين ..
- بس يابت ه يعطى من ملك غيره ..
- ملكه والا ملك غيره .. قنمت والحمد لله ..
- بتحدثى مين ياست ابوها ..
- انت فين داهية ياواد يا مواد .. دابعا ورايا .. ورايا ..
- انا فت ع الدار .. ندهت .. محدش رد ..
- مين ه يرد .. يا حصرة .. انا صاحبة من اذان الفجر ..
- غسلت وشى ولبت لقمة .. وقلت يابت ادحدحى .. اسبغفهم
ع الفيط ..
- تركبى الحمار ياست ابوها .
- معدشى يعرى .. السكه خلصت .. الفيط قرب ..
- والله انا ياست انا بيعز على بهدلتك فى الفيطان ..
- مش عيب يا مواد .. ايام .. مين الى مرتاح .. الله يرحم

الجميع ..
.. اختار عواد لست أبوها خط قلب للقناية .. قطنه خفيف ..
تقتعد حرف القناية وتميل الشجرة .. وتنتزع القطن من اللوزات
وتثنى الشجرة .. وتضبط بيدها على حرف القناية وتنتقل
للشجرة الثانية .. اولاد عواد .. ونسوان اولاده وأولاد اولاده
بعدد خطوط الفيظ من الحد للحد .. وقف خفير الاصلاح الزراعى
يسأل ..

— عاوز كام كيس ياعم عواد .. !!
— هات كيسين يا ابنى ..
— قولى موال ياخاله الست ..
عم عواد لحفيده ..
— اجمع ياواد وانت ساكت ..
ابن عم عواد البكرى ..
— ياراجل .. سيب العيال يتفكرو .. احنا فى مدرسة ..
— ياتك الغم .. لسناك طويل زى ابنك ..
— قولى موال ياخاله الست .. وانا هـ اجمع لك الخط بتاعك ..
عم عواد قذف حفيده بطوبه . تلقاها الصغير باسماء عابثا .. ونظر
الى ابيه يرى وقع ماحدث على قسماات وجهه ..
ابن عم عواد البكرى ..
— ياراجل تقطنا بسكااتك .. سيب العيال يجمعوا .. والا اقول
ك . قوم روح . فوت على النقطة دول كانوا عاوزينك ..
— اخرس لسناك ياوله .. دك خيبه .. انت وابنسك فى يوم
احد ..

ولكن حفيدا آخر مال على الصغير طالب الموال ..
— ياخابب الموال مايجيش كده .. سيبه ييجى لوحده دى خالتك
ست متعرفشى تشتغل الام تقول مواويل ..
— مين اكبر ياوله .. جدنا والا خالتك الست ..
— انا سمعته مرة يقول انهم من سن بعض ..
صحيح كان داير عليها قبل مايجوز جدتنا .
— الله يرحمها .. قبل ماتموت سمعتها بتقول لابويه ابوك ياابراهيم
لوش امان .. ياما جبرى ورا ست أبوها .. كان فى نفسه
نوزها ..
عم عواد لم القطن من حزم الجمعية والقاها فى الكيسى .. ادار

يده في الكيس يسوى القطن ويكبسه .. واستند ظهره الى الكيس
وفى ظله اخراج عليه الدخان .. وانتزع ورقة بفرة من الدفتر اخذ
من العلبة مسكة اصبعين دخان فرط .. انام الورقة على السبابتين
.. وبالأبهامين ، برم الورقة الرقيقة .. وبطرف لسانه بلل حرفها
وبرمها .. فاستوت في يده سيجارة تعلقت بين شفتيه .. سحب
من جيبه كيس قماش صغير .. اخراج منه قطعة حديد مستديرة
مع قطعة سن مشطوفة قرب يده من فمه وضرب الحديد على
الصخرة فتطايرت بضغ شرارات وشد نفسا عميقا فاشتعلت
السيجارة .. وزم شفتيه تاركا ثقباً ضيقاً .. طرد منه الدخان
فانبثق خط أفقى .. ومن طاقتي انفه نفث عمودين من الدخان
تقاطعا مع الدخان المنطلق من بين شفتيه .. وسرح ببصره فمسح
الأولاد ونسوانهم واحفاده .. وبسط ساقيه .. ووقف عند ست
أبوها .. ونفض عرق داخل صدره ..

— فين يا اولاد .. عمر .. عمر طويل .. من ايام م رجعت من
السلطة .. رحت لامها .. كانه امبارح .. دارهم اللي مغيرهاشي
الزمان .. ياما سمعت من المرحوم أبويه .. الفاتحه لروحه ..
وروح امواتنا .. واموات المسلمين .. ياما سمعت منه ان الدار دي
كان فيها بدل الراجل خمسة .. ابوست ابوها .. واخواته ..
سبحان الداي .. فضلت الوليه وبنتها .. مش هانسي أبداً ..
يوم م قلت للوليه على اللي حصل للمرحوم ابراهيم الله يرحمه ..
الوليه حزنت عليه .. يمكن اكثر من امه .. الا ست ابوها ..
م فيش وحده بالوصفة دي .. تقع من طولها ساعة م تعرف ان
ابراهيم مات .. يعنى يا ولداه لو عرفت اللي حصل له .. الله
اعلم .. كان عملت ايه في روحها .. قاست كثير .. م صدقش ان
ابراهيم قال لى ياعواد اجوز ست أبوها .. الله يرحمك يا ابراهيم
.. فين العود السرح الحلو .. ياما التراب بياكل ..
— اجوز ست ابوها ياعواد ..

كانت بتحبه .. وشهاده لله .. انا م كت بعقد في حكاية الحب
دي .. وللو قتر كمان .. لكن ست ابوها .. فيه واحده تعمل كده
.. تيب لو مش بتجننى .. كان اجوزت حد غيرى .. امها قالت
لها ..

— ياست ابوها .. يابنتى .. الاعمار بيد الله .. وربنا عطل الجواز
عواد مش غريب ..

- يامه راسي وألف سيف .. أنا خلاصى هرفت بختي ..
- يابنتى انت لسه صغيرة .. لا رحت ولا جيت والبخت عند
الله مداري ..

- يامه آنى مش هاجوز .. لا عواد ولا غيره ..
- سيبيها ياخاله امباركه .. هيه .. رامية عينها على حد
ثانى ..

- ياعواد يابنى .. دى بنتى وأنى عارفها .. وحياة دى الليلة
ومساها يابنى .. م حد فى دماغ ست أبوها .. سيبيها شويه ..
الفرقة صعبه .. ودول يابنى كانوا .. زى الاخوات ..
- ياعواد يابنى .. شوف عدلك .. بنتى حصل فى دماغها حاجة
.. دى يا حبة قلبى طول الليل تعيط .. وساعات تضرخ وهيه
نايمه ..

- ياخاله امباركة .. المرحوم ابراهيم قال لى .. انه م كانشى
بيحب ست أبوها .. زى م واحد هيجوز واحده .. زى م يكون
اخوها أبوها .. وانى مطرحه .. الجواز نصيب لكن انى خدام ..
زى ابنك تمام .. وست أبوها على كل حال اختى ..
- البقية فى حياتك ياست أبوها .. الدوام لله .. ماتحلميش
هم .. أحنا محناشى غرب عن بعض ..

- كتر خيرك ياعواد .. عملت اللي عليك وأكثر .. لاكت عارفه اكفن
ولا ادفن .. ولا عارفه يميني، من شمالي .. كتر خيرك ..
- كان عندها حق .. مين كان يتحمل اللي حصل لها .. الدار
تاعتهم اكبر من الجرن .. تنام فيها ازاي ياولداه لوحدها .. والحاجة
الغريبة انها ترد كل اللي راحوا لها .. مسكينة .. كان عندها حق ..
مين كان يتحمل اللي حصل لها .. آنى نفسى لما قالوا لى ياعواد ست
أبوها سدت الدار عليها ومبتطلمشى ادى جمعه بحالها .. خفت اخش
الدار عليها وكانت ليلة زى الطين .. دقيقت ع الباب م حدش رد
مرة .. واثنين وثلاثة .. ادورت من ع السطوح .. ونزلت ع السلم
الخشيب .. جزع نخله منجور .. لقيت نفسى جوه الدار .. ضلعه
خرس .. ياست أبوها .. ياست أبوها .. خفت .. قلبى ضرب
والفار لمب فى عبي ..

ياواد يمكن ماتت .. يمكن هجت .. زى م بتهج فى ميعاد جمع
القطن كل سنة يمكن .. يمكن .. والدار زى الهو ..
.. ياست أبوها .. آنى عواد .. اطلعي .. باشيخه حرام عليكى

حلفتك بسيدى ذى النون وحياة ابراهيم .. وفين .. وفين وفين ..
لما سمعت عياطها .. ياناس دا حرام .. دا الوليه دى تعذبت عذاب
الله يلعن الحب .. على اللي بيعجوه ..

- يا عواد .. كتر خيرك .. انا كده مبسوطة .. سيبنى ..
- انتى فين الاول .. آنى مش شايف ..
- آنى فى القاعه اللى مانت فيها امى ..
- اطلعى ياست ابوها ..

- سيبنى يا عواد .. اطلع اعمل آيه .. خير ربنا كثير .. العيش
فى المشنه .. والزير مليون ميه ..

- على الطلاق من حليمه بنت البرمى يحللها شيخ ويعرمها شيخ
ما اسبيك تنامى لوحدك فى الضلمه ..

الضلمه موتت قلبها .. الضلمه وحشه ياناس .. انى استغفر الله
العظيم يارب .. م أخفش من الملايكة اللى فى القبر زى م اخاف من
الضلمه .. الضلمه عملتها راجل .. فيه واحدة زيا كانت تمشغل
الشغل دى كله .. اراضى الوسيه .. ارضى ارض .. حوض حوض
.. فين .. والا فين .. والا فين .. انى بللى اسمى راجل ..
م اشتغلتش زيا .. من ساعة م الوسيه تحط بذرة القطن ايد ست
ابوها ما تتعشى عن الخط .. تزرع .. تخل تقى الغلست ..
الهندوه .. تلقم الكيماوى .. الحاجه وحشه ياناس .. دى كانت بتسقى
نحت مكنة الميه بالليل مع الرجاله .. والا كاده .. ان الناس خلاص ..
قالت ست ابوها .. عادت راجل .. راجل يا خساره .. يا خساره
يا اولاد .. الله يلعن الايام .. فين .. فين ست ابوها .. اللى كانت
تجمع القطن طول النهار فى بؤونة الحجر .. السمسم م تشوفشى
ابوها ولا وشها .. آخر النهار وهيه مروح .. ولا بنت ناظر الوسيه
كعبها ببقى احمر زى الجزره وشها زى الطمطمه .. الله يرحمك
يا ابراهيم مش ه انسى الموال بتاعك .. عندى من الور .. كانت
بستان ورد صحيح .. مين يصدق .. الناس معذوره .. محدش
شافها من اولاد الايام دى .. ورحلتها تانى بهدم اسبوزت وبعد
م جيت بسلامته ابراهيم .. على الحرام كان قصد خير ..

- ياست ابوها .. ربنا حلل الجواز من واحدة واتنين ..

- ياست ابوها سيدنا النبى .. اجوز بعد ستنأ خديجة ..

- ياست ابوها انا خدامك .. خليكى فى دار ابوكى زى ما انت
دانى ومراتى والعيال تحت رجلىكى ..

- كثر خيرك يا عواد .. عملت اللي عليك واكثر .. والاكاده الناس
عملوني ولي امرها الواد السعيد بن فرحة يقول يا عواد آنى عاوز
اجوز ست ابرها وجاى لك . تقول لها . قلت لها .. اعمل ايه ..
اى حاجة احسن من الضلمه اللي عايشه فيها .. والشغل ليل نهار
فى ارض الوسيه .. وارض اللي يسوى واللى م يسواشى .. انا
سمعت اباھتنا بودانى اللي هياكلها الدود .. انها بنت اصل ..
دارهم دى .. كان فيها بدل الجاموسة اثنین .. وبدل البقرة اثنین ..
حتى الجمل سمعت ان المرحوم ابوھا كان عنده جمل .. حكمة ربنا ..
صحيح زى م قال الله یرحمه الشيخ حلموش .. اللي يسأل ربنا ..
عملت دى ليه .. بيقى كافر .. راح فین دا كله .. الرجاله ..
والبهام والدنيا .. والاخر نصفصف عست ابوھا .. والطوفه تيجى
لھا .. لا ترضى بيه .. ولا بغیرى :

- يا عواد .. كنت انت أولى من السعيد بن فرحة والاثيره ..
دا انت جمالك م تتعدهش .. عييت .. جيت لى .. الليمون
البنزھير .. وجيت مع المرحومة امى وخدتونى للشيخ .. وجيت لى
السحلية ربطتها فى رقبتى .. وخدت الميه اللی الشيخ كتب علیھا
ورشيته فى سبع مفارق .. ولما امى ماتت م سبتنيشى .. ومعایه
زى اخويه واكثر .. والله فيه اخوات م بيعملوا كده .. كنت انت
أولى يا عواد .. لكن انا مش بتاعة جواز .. جواز وقلنا كل شىء
قسمه .. لكن اللقمة .. الحاجة وحشة دانت عفوفة .. ياما رجعت
الناس بزكاه رمضان .. وقير رمضان ..

- يا عواد انى مش هاكل الا من عرقى .. طول ما فيه صحة ..
اروح واجى مش هاكل الا من عرقى .. لما اعيأ يتولانى اللی بيتولى
الناس كلها ..

- يا ستى .. ده مش عيب .. والا قربون اولى بالمعروف ..
- انت لسه هتعرفنى يا عواد .. بعد العمر الطويل ده .. العيب
وقلته .. انى م بخدشى حاجة من حد الا بعرقى .. الحمد لله .. الحمد
لله والصحة .. رضى .. ده ثواب .. سروح الفيظ حسنه عند الله
يا بخت من نفع واستنفع يا عواد ..

- همرك ناست ابوھا .. دماغك حجر .. لينى باوليه ..
- ايدا والله .. سيدنا الخضر .. جالى فى العلم .. وقال لى
ياست ابوھا .. سروح الفيظ حسنة عند الله ..
- تب ربحى نفسك شويه ..

— ياواد باعواد .. الراحه بعد لقاء الله ..
.. تعامدت الشمس فوق « شرخه » عم عواد .. فارتفعت حرارة
الغيظ وما فيه حتى قاربت الالتهاب خالتي الست العذراء .. ست
ابوها .. تظلل رأسها أعواد ملوخية خضراء مربوطة من جذورها ..
الاصابع الرفيعة الناشفة تقف مرتعشة على لوزة القطن .. الاولاد
يميلون عليها يخطفون لوزة من هنا ولوزة من هناك يخففوا الخط
أمامها .. الصهد حاصر عم عواد فهب فزعا من البئر المظلم البعيد
الذي وقع فيه .. سقط بصره على طرطور أعواد الملوخية الذي تحتمى
به ست أبوها ..

— عمر طويل ياست ابوها .. فين ياولداه .. لو ترضى البقاء في
منزلهاو يتكفلها عم عواد .. اقل لقمة تكفيها .. لكن رأسها ناشفة
وتعلبت بعنادها ..

.. ووقف وراءها .. نادى واداً من أحفاده .. وامره ان يجمع
حرف القناة .. طلب من ست ابوها ان تستريح طول القيلولة تحت
شجرة الصفصاف في رأس الغيط .. رفضت ست ابوها .. اقسام
عم عواد ايماناً بالطلاق وبحية سدى ذى النون والست ام هاشم
انه لن يترك ست ابوها تجمّع القطن في القيلولة .. أحست ست
أبرها ان عواد لا ينوي التزحزح عن رغبته اعلنت اليه .. أنها ان
تتقاضى منه الا اجر نصف يوم .. وفي ضربة خاطفة قارنته بالوسيه
.. وابتمست في وهن مفضلة اياه عن الوسية التي كانت تقطع اجر
اليوم كاملاً . لو مرض النفر او طرده الخولى قبل قطسة الشمس
احتد عم عواد .. واصر على عودة ست أبوها الى البيت ..
.. استلمها الطريق الى المنزل .. عزم عليها ان تركب .. ابنته
ست ابوها في ود ..

— انت ياراد باعواد عقلك .. جرا .. له حاجة ..

— يا شيخه اركبى ملعون ابواناس كلها ..

وهاجم عم عواد عناد ست ابوها بمناسبة رفضها ركوب الحمار
وفي تلايف دماغه احلام الظهيرة في ظل كيس القطن ..

— عمرك دماغك ناشف .. على الطلاق ..

— طلاق من مين ياخييه .. اجوزت اتنين ووديتهم .. ياعجوز ..

يا نزش ..

ضحك عم عواد .. ولم يكن لديه أى نبض ان يصف ست ابوها
بالكبر او بالشيخوخة .. لا سمح الله ..

استوى عم عواد .. على ظهر حماره الاسود المعجوز وفي محاذاته
سارت ست أبوها .. الحمار يحرك رقبتنه في تؤدة .. أذناه الكبيرتان
تهتران على وقع الحوافر البطيء .. تنغم صوتى وحركى يصاحب
الكلمات بين عم عواد وست أبوها .. عم عواد يعاتب صديقه
العمر .. فى ألم واضح .. فهى لا تاكل قدر مايتبقى من طفل ..
وخير ربنا كثير .. وقسما بمن رفع السماء بلا عمد عم عواد يشيل
اللحمة من فمه الى فم ست أبوها .. رجاؤه ان ترتاح .. لكن ست
أبوها تفاجئه ..

- فاضل اد .. ايه .. على مايكمل الجنيه

- دماغك ناشف ياست أبوها ..

- انابدى اكمل الجنيه .. علشان أموت وانا مرتاحة انى سايبه
تكاليف الكفن ..

.. كانا قد اقتربا من القرية .. اعترضهما الواد شحاته الغفير
الميرى .. أعلن الى عم عواد ان نقطة البوليس تطلبه فاصفر اولاده
غاب عن المدرسة بلا تصريح وحرروا له محضرا ومطلوب منه كلمتين
فى النقطة ..

- سحب شحاته عم عواد الى نقطة الشرطة .

قادت خالتي الست قدميها الى داخل القرية .. كنست صحن
الدار الواسعة ملأت البلاص من حنفية المجموعة ..

اوقدت الكاثون تسخن صحن الملوخية .. خيمت العتمة .. داخل
الدار الكبيرة .. رفعت رأسها الى السماء من صحن الدار المكشوف
بصعوبة تبينت شقا ابيض فى السماء .. حسرت القرطة عن رأسها
عرت مقدمة شعراتها البيضاء ..

فتحت صدرها .. رفعت كفيها مفتوحتين فى مواجهة وجهها ..
وفى تبتل عميق .. هل .. هلاك ..

- اجعله شهر مبارك ..

.. آمين ..

.. آمين ..

.. آمين ..

فرح سلامة

مبروك يا عم منصور

ولم يجب عم منصور .. كان فى دنيا ثانية .. كان دماغه يدور ... يوم ما كان راجع من الفيظ المغرب يسوق حماره الهزيل أمامه ، ويسحب الجاموسة والعجلة الصغيرة المربوطة فى رقبة أمها ، وبين القافلة الصغيرة ، يسير عم منصور ، تصفع قامته المديدة ، هبة هواء بارد مرة ، وقطرات المطرمرات ، وبقدميه حذاء ضخم من الطين المخلوط بقش السكة وأعواد البرسيم ، أما البشت فلا يكاد يستقر على كتفى عم منصور .. ذلك أن الطريق مزدحم بالجاموس الهائذ آخر النهار .. وإذا مارات جاموسة جاموسة أخرى .. فان عيونهما تتسع أولا ثم يحدقان فى بعضهما ، وأخيرا ترفع كل منهما ، رقبتهما الى أعلى .. وسرعان ما يلتقى رأساهما عند القرون فى نطاق رهيب .. وعم منصور يخاف على جاموسته ، فما ان يحس بقرب الصراع حتى يلقى البشت على ظهر الحمار ، ويتفرغ بلا وقاء من المطر ، لحماية الجاموسة .. وعند اقترابه من باب الدار ينادى ، حوشى اللى فى السكة يانظيره ، وتسرع نظيره باخلاء ما يكون فى طريق البهائم .. وتفتح باب الزريبة ، وتتولى هى عملية الربط والعلف .. وعند عودة عم منصور من الجامع ، تكون قد حضرت الاكل ، وحضر سلامه والاولاد .. ويتناول الجميع ، العشاء استعدادا للنوم عميق .. لكن تلك الليلة وضعت نظيرة الاكل فوق الطبلية وتساعد بخار فتة العدس ، وثلاثة اربعة بصلات تحيط بصينية الفتة .. واقام عم منصور من اصابعه للبصر والوسطى والسبابة شيئا يشبه مشط الفاس ، وقرزة فى الفتة وباصبعه الابهام حصر اللقمة ورفعها الى فمه ، وكانت ساخنة ، فنفخ .. ثم حدد بصلة ورفع قبضة يده وهوى بها عليها فتفسخت ، وهم ان يمد يده للقمّة ثانية ، الا انه لاحظ ان سلامة ابنه لا يزال جالسا القرقصاء فى ركن القاعة ، وقد اتخذ هيئة من يستعد لشيء ما .

- ماتخس تاكل يابنى .
- لا .. مش واكل .
- ليه .. انت اتعشيت .
- الكلاب اهى بتاكل .. خذ بيموت من الجوع .
- مال الواد ده يانظيره .
- ياخويه ماليش دهوة .. انت حر انت وابنك .
- أنطقى يا عمه يا جاموسة .. الواد زعلان ليه .

- انا مالى ، هو .. هاوؤا .. يجوز .
 - جواز ايه ياسلامه .. مش تستنى يابنى لما يفيض لنا قرشين .
 - هاستنى لامته .. ثلاث بنات درت عليهم والآخر اجوزو غيرى
 وانا بقيت مثله فى البلد .. هاجوز فاطمة بنت الشيخ عطيه .
 لا مانئس سارج .
 - اللى ماسرحش ماياكلش .
 - انا عارف انك هاتقول كده .
 وتدخلت الام - من بعيد .. من وسط الدار .
 - جوز الواد يامنصور .
 - اسكتى انت مالكيش دعوة .. يطور الله فى برسيمه .
 - ماليش دعوة ازاي .. هو مش ابنى والا ايه .. يعنى لما يعملها
 ويطفش زى مابقول مين اللى هاينفعنا .

...
 واحس عم منصور بالهزيمة .. ولكنه تحامل .
 - هاجوزه منين يانظيره .. الأيجار يادوبك سديناه ، والقرشين
 اللى زادوم جبنا بيهم هدمتين واشترينا الجحش .. والكيماوى بكره
 ربنا يفرجها نبيع شوية قطن صيفى والا شوية رز والسنة الجاية
 ربنا ماينساش عبده .. وخاف سلامة ان يقتنع بكلام أبيه ،
 فعاجله .

- شوف .. ينساه ماينسهش انا ماليش دعوة .
 ... وقضى عم منصور ليلته مشغولا .. فهو لا يملك مايحقق به
 رغبة ابنه ، وعرف من كلام زوجته أن الولد قد يهرب ويشتغل فى
 قرية بعيدة ، وهو لا يستغنى عنه فى الفيظ ، فسلامة هو الذى
 يقوم بالعمل فى القدادين الاربعة ، وبدأ بالرجل ميل الى لوم ابنه،
 ولكنه راجع نفسه فالولد قد احب ثلاث فتيات ثم تزوجن بغيره
 لكثرة تأجيل ميعاد كتب الكتاب ، والارض على رأى المثل « اللى
 يحبيه القرد بعلق به الجحش » واحس الرجل انه فى ورطة ..
 واخذ يبحث عن حل .. وكان النعاس قد حوم حوله عندما استقر
 على ان يزور الشيخ عطيه ، ويستمهله كتب الكتاب الى السنة
 القادمة .

... وفى الصباح بدأ سلامة حركة العصيان المدني ، فلم يتناول
 افطاره ولم يحمل فأسه .. وأثر عم منصور السلامة ، فقاد قافلته
 الى حقل البرسيم .

... وبعد صلاة العشاء كان عم منصور يطرق باب الشيخ عطيه ،
وبعد الترحاب والسلامات ، بدأ عم منصور ممهدا للموضوع
مستمعينا بالقراءة البعيدة والجوار .. وانتقل الى حالة الارض وما
تنطلبه من تعب ، ثم أردف متزلفا ، بعد ان اشبع ابناء اليوم
تقريبا ، « هو انت ياشيخ عطيه كنت حتقدر تفتح عينيك في وش ابوك
المرحوم جاب الله ، اهو ده الادب صحيح » وطرق الحديد ، ظنا منه
انه قد سخن ، وارتدت المطرقة ، خائبة ، فالشيخ عطية ، ربنا
يبارك ، عنده اربع بنات ، كبراهن فاطمة والمسألة استوت ، والرجل
يريد ان يطمئن على مستقبل بناته قبل الرحيل ، والبنات ان كبرت
ضاع سوقها « وحرام برضه يامنصور ، نفوت سوق البنات » وخرج
عم منصور مهوما ، فالحل الذي كان قد اطمأن له خاب ، وهو بين
ان يزوج سلامه من فاطمة ، وقد اخذ مهلة اسبوعا ، او ان يترك
سلامه يعملها ويطفش ، والارض تبور ، وتبقى فضيحة ..
وماكاد عم منصور يضع قدمه في الدار ، حتى فاجأته نظيرة .

— خير يابو سلامة .

— خير نانظيرة .. الرجل المكروت عطيه بن جاب الله الحرامي
مرضاش البنات تستنى للسنة الجاية ، وهو سلامة جاته الغم مش
لاقي الا الناس الواطية دي .

— البنات يامنصور .. شهادة لله .. طيبة وشاطرة .. تقوم
الفجر تملئ الزير وتكنس قدام الدار .. وتلرز الجسلة وتعلب
البقرة .

— شاطرة ، الاعويلة .. احنا في الواد اللي هايعطلنا ويفضحنا .

— ماتبيع يامنصور قنطارين قطن صيفي .

— باستي ما انا هابيع عشان الكيماوى .

— بالمره يمكن ربنا يوسعها .

— هايوسعها منين .. الحكاية اربع قدادين .

— اشترى ابنك يامنصور بقنطارين قطن .

— اشتره يانظيرة بخراينا ؟؟

— ياخوية ربنا يخليك ويابو سلامة ياما الجمل كسر بطيخ .

— ويام سلامه ياما البطيخ كسر جمال .

... وفي هذه الليلة نام عم منصور مستسلما مهزوما ، يستعرض
في ذهنه اسماء الناس الذين سيبيع لهم القطن بنصف الثمن نظير
تأجيل التسليم حتى جنى القطن ، وبرزت مقارنة في دماغ عم

منصور على أيام « المرحوم أبوه » لم يكونوا يعرفون قطن صيفى ،
كان الواحد أن احتاج قرشين يستلفهم من جاره ، ويرجعهم له
قرشين ، لما ربنا يفرجها ، أصل الناس فى البلد . كانت أيامها كلهم
فقرا . ٨

.. عم منصور ، كرجل فقير ، مكانه فى المسجد أثناء الصلاة ، فى
الصفوف الخلفية ، فجلبابه البالى المتسخ ، لايسمح له بحشر نفسه بين
وجهاء القرية فى الصفوف الاولى التى تلى الامام مباشرة ، وهو
لا يتذكر ابدا مع انه يمارس الصلاة منذ اكثر من عشرين سنة انه
صلى فى الصفوف الاولى ، لكن هذه المرة فى صلاة الظهر ، خرج
الرجل على قواعد البروتوكول ، ووراء الشيخ القزمازى مباشرة ،
ادى الصلاة ، وبعد التحريم وخلافه ، خرج المصلون ، ولم يبق الا
منصور وفضيلة الامام ، وخادم المسجد ، وتقدم منصور ، على
استحياء .

- الا ياسيدنا الشيخ .

- خير يابنى .. خير

- انا كنت عاوز قرشين لحسن الواد ..

واراد الرجل ان يستطرد فى حكاية طويلة ، الا ان الشيخ
القزمازى قاطعه :

يا ابنى كنت ارجو ان انال ثواب اقراضك ماتحتاج ، فالنبي عليه
الصلاة والسلام يقول ، من فرج عن اخيه كربة .. وادرك عم منصور
نظراته الصافية ان الشيخ ظنه يطلب سلفة ، فبادر موضحا .

- انا عاوز ابيع قنطار ونصف صيفى .

- تبيع قطن صيفى ، ابن ارضك .

- فى حوض الجميزة ..

- ارض جيدة ، ولكنى سمعت انك تريد تزويج ابنتك ، فانت
ستحتاج لمبلغ كبير ، واخشى الاستطيع تسليم القطن .

واخذ الشيخ القزمازى يحاور عم منصور ..

وعندما خرجا من المنزل كان فى جيب عم منصور ثمن قنطار
قطن ، وشئ آخر ، هو من باب الاحتراس كماً سماه الشيخ
القزمازى ، عقد شركة فى الجاموسة ، فيه ان الشيخ دفع نصف
ثمنها ، وان منصور ملزم بالمحافظة عليها ، وعدم التصرف فيها ،
الا برضاء الطرف الاول ، وهو طبعا الشيخ القزمازى الذى دعا
لمنصور أن يبارك له الله فيما هو مقدم عليه ، أما منصور ،

فأغلب الظن انه لم يسمع دعاء الشيخ ، فقد كان يستعرض أسماء الفئة التي تشتري القطن على أجل ، وله من استعراضه غرض ظاهر ، هو ان يختار التاجر الذي يتوسم فيه بعض الطيبة ، وامكان انتظاره استلام القطن لعام آخر ، فليس من الممكن ان يتوافر عنده قطن بكفى تسديد الإيجار والوفاء بالكمية التي باعها على أجل .. وبدا له ان ليس فيهم من يفضل على غيره ، فكلهم اولاد كلب ؟

واستقر على ان يذهب الى عبد الرسول ، ابن العمدة ، تبقى معرفة ، ويمكن يحتاجه في كده والا كده .

وبعد صلاة العشاء حملت عم منصور قدماه الى بيت العمدة ، ليقابل عبد الرسول افندي ، ولم يمهله عبد الرسول حتى يتم حديثه بل اخبره بأنه يعرف كل شيء ؟ مقدار ماباعه للشيخ القزمازي . وعقد شركة الجاموسة ثم قال مستعجبا :

- لكن يا عم منصور ، والجاموسة دي الوقتي مش بتاعتك اخويا له فيها النص ، والنص بتاعك بعته للشيخ القزمازي .

- أبدا والله ، أنا مابعتش النص بتساعي ، دا بس من باب الاحتراس .

- احتراس ايه يا حمار ، هو المحاسم عارفة احتراس والا ما احتراسش ، قدامها في الورق انك بعت وخلاص .

- ياسيدي ربنا يجيبها سليمة ، وان شاء الله أسلمك اول ما اجمع .

وعبد الرسول - كتاجر - خبيث اصيل ، هو يطلب ضمانا للوفاء ، والجاموسة لم تعد ملكا لمنصور وخسأطب نفسه « والفلس يقلب السلطان » واحتج منصور الطيب على وصفه بالفلس ، وقال ان خير ربنا كثير ، ولم يهتم عبد الرسول ، فقد كان يطلب ضمانا لدى منصور لا عند الله .. ثم فجأة :

- هم منصور ، انت هاوز تبيع قنطارين قطن صيفي ؟

- أبوه ياسيدي ، قنطار ونصف ؟

- اسمع من باب الاحتراس ، تبيع لي الاوضة بتاعتك اللي على الشارع .

- يانهار اسود .. ابيع بيت ابويا ياسي عبد الرسول .

- ياراجل افقل . دا مش بيع دا من باب الاحتراس . ؟

وانت بتقول هاتسلم يوم ماتجمع القطن . وساعتها خد كل
اوراقل .. وفى استسلام وقع بختفه او بالحتة الصفيح ، كما
سمها هو ، لعبد الرسول ، وقبل ان يضع ثمن قنطار القطن فى جيبه
كان قد تعهد بتسليم عبد الرسول قنطارا ونصف قنطار قطن ..

وشىء هو من باب الاحتراس ايضا ، عقد بيع الحجرة التى تطل
على الشارع والتى يحدها من الغرب فلان ..

... انتفخت اوداج سلامه ، فلن تتندر عليه بنات القرية بعد
الآن ، ولقد أثبت رجولته وسيتزوج فاطمة بنت الشيخ عطية ،
سيد اسباد البلد ، كما سمته نظيرة ، والرجل الذى لا يساوى
مليمًا ، كما براه عم منصور .

اما الشيخ عطية نفسه عند تحديد المهر ، فلم يكن اقل
من على بن احمد او فلان وفلان ، ويردف قائلا « وعلى كل حال
ياشيخ منصور ، كله راجع بيتك » ويرد منصور ، ياشيخ عطية ،
نسبك كفاية ، هيه الاصول ضاعت والا المسألة فلوس بس » واثمر
رد منصور فقد قنع الشيخ عطية بما يحمل منصور من فلوس هى
ثمن ماباعه من قطن ، وبقيت اشياء صغيرة ، كام اقة بطاطس ، وكام
رطل طماطم ، وكيلة رز ابيض ، مطالب كلها بسيطة ، يقدر عليها
عم منصور بلا ارهاق اما الشىء الذى يعجز عنه حقا ، فهو اتعاب
المأذون وحمل الرجل الهم ، فسيرجع مرة ثانية الى الشيخ القزمازى
فهو بلا حسد ، امام وخطيب ومن ذوى الاملاك وتاجر ومأذون القرية
السعيدة ، ومرة ثالثة باع منصور ربع قنطار قطن ، ولم يقبض من
ثمنه هذه المرة شيئا بذكر .. وقبل ان يمر اسبوع المهلة ، كان
بيت الشيخ عطية يعج بالناس الرائحين الفادين فى وسط الدار
اما علية القرية ففى مندرة الضيوف يضيئها كلوب غانم الحلاق ،
وفى خارج الدار اجتمع النسوة يصفقن ويغنين « ليه يابن عمى
تجوز عليه » .. فيرد الفريق الآخر من النساء « بجوز عليكى من
وسخ رجليكى .. حنى واغسلهم وانا ارضى عليكى » .

والجميع فى انتظار الشيخ القزمازى الذى يحضر على مهل ووقار
وقد سار خلفه بعض اهالى القرية يحملون دفتر القسائم ودواية
الحبر والريشة ، مكتوب عليها بخط ممسوح « الحكومة المصرية » ،
وقبل ان يبدأ بصر على سؤال فاطمة عن توكله .. ويضع سلامة
يده فى يد الشيخ عطية ويخرج فى شهامة منديلا جديدا ، يفرده

فوق البدين المتشابكتين ويردد الشيخ عطيه وسلامة كلمات السحر ،
وراء المأذون وحالا يحل الحرام ..

ولا ينسى الشيخ قزمازى ان يتسلم المنديل الجديد ويدسه فى
جيب الكاكولا .. وتنطلق الاعيرة النارية ويميل الشيخ قزمازى على
عم منصور .

— مبروك يا عم منصور .

— ...

الليلة الجاية

الشمس . هناك . على مدد الشوف ، كحفرة مملوءة بالاولاح المتوهجة .. وهى لقربها ، تستطيع - كما يقول عم زناتى - ان تخطفها بيدك .. ابو قردان عائد ، ليقضى ليلة فوق اشجار الجميز المعجوز حول قريتنا ، جماعات ، جماعات ، كاثواب القماش الدبلان تحملها الريح .. فى الحقل ، خرج الناموس من الادوار السفلى لاشجار القطن ، يملأ الجو طيننا كثيبا ، ولدغا موجعا .. سلكك الفيضان تشهد حركة نشيطة . الجاموس والبقر مسحوب الى الفيضان ، اكياس الدريس فوق الحمير .. عدد السواقي مربوطة بالاحبال .. نساء راطفال ورجال ساجبون راكبون ، حاملون .. حركة فى حقول قريتنا .

... الجدع زيدان ممتطيا شجرة الصفصاف ، ويضرب بفأسه فرعا ناشفا ، وتكاد تسمعه يحدث نفسه « دى مش فدان قطن اللي هانبات له عند الساقية جمعة بحالها ، منعرفش نسقيه » صوت عم زناتى ، ياتى من الجانب الآخر لمدار الساقية ، يحذر الولد زيدان ، من ان ينكسر الفرع الذى يركبه ، ثم لنفسه « يعنى القطن هايجيب ولد .. قطيعة ، والله م يجيب تكاليفه » ثم يأمر فهمى ، ابنه الثانى ، ان يرمى للجاموسة علفه دريس ، ويتأكد من رباط الحمار فى الوتد ، فالليل داخل ، والحمار مشاكس ، كشر! ما رجع الى الدار وحده ، وتركهم فى الفيظ يوسعونه شتما وسبا . ويهدأ عم زناتى قليلا ، ويخرج من جيب جلابيته علبة السجائر سمسون ماتوسيان - وفى سره - « والله باربى مايجيف » ويفتح علبة الكبريت فيجدها فارغة ، ويتذكر انه نسى ان يطلب عودين كبريت من الشيخ سليمان البقال ، وهو يشتري السجاير ... ويلتفت حوله بحثا عن فرحات جاره فى الارض ، والذي سيتسلم الساقية بعد ان ينتهى هو من رى ارضه ، فلا يجد الا بقرة فرحات مربوطة بجوار غبيط الدريس ، وعزال الساقية الخاص به ، او قل

ان بعضه يخصه ، والاخر استعاره من ناس جيرانه فى الدار ، ويسأل عم زنائى ، ابنه فهمى ، عن فرحات ، فيجيبه فهمى .. راح الدار يتعشى ، ويجيب له كيس يتغطى به .. ففرحات فلاح واع ، يعرف جيدا ، ان ليس خيرا من الكيس غطاء ! عند الساقية . فى الجو الملبد بالناموس ، فشعراته تمنع الناموس من الوصول الى الجسد ودس ابرته فيه .. وتهتز السيجارة بين شفتى عم زنائى ، وتنتقل الى اسابعه ، وهو ينادى رشاد ، الذى لا يجيب ، فرشاد اخبره الخفير بان التربة ، ستفيض الليلة على الجسور ، وسيروى قطنه الذى مات من العطش ، واستعدادا لوصول التربة ، كوع رشاد ، بجوارالساقية المجاورة لساقية عم زنائى وشركاه .. وضاق خلق عم زنائى بحشا عن ولعة سيجارة ، وزعق فى الولد فهمى ابن الكلب ! يعنى مش عارف اولع السيجارة ؟ .. « ساقيتان فى البر ده وساقيتان فى البر الثانى وعند كل ساقية بدل الرجل خمسة .. ومش لاقى اولع السيجارة .. ايام سودة بصحيح . مش كفاية انقطن فات اربعين يوم ماشفش المية .. لما باه يصعب على الكافر » ثم اردف « ياواد يافهمى يابن ستين كلب شوف لى ولعة سيجارة من تحت الارض ، وتمتم فهمى - فى سره « اصل الناس لما بتكر بتخرف » واتجه فهمى الى البر الثانى للتربة ليسأل عن كبريت ، غير ان الولد الفطن ، قبل ان يخرج من قلب التربة الجاف ، شم رائحة ما ، هى بالتأكيد رائحة الشرب الناشف يمتص سيل الماء ، وحانت منه التفاتة ...

فشاهد الماء مقبلا يتهادى ، ورقص قلب الفتى كما كان يرقص ليلة ان ابتسمت له سجيده .. والحق يقال ان رؤية الماء فى الحقل بهجة وفرح .. حتى ان فهمى نسى حكاية الولة ، وهتف « وله يازيدان .. وله .. المية جت » وقفز زيدان من فوق فرع الشجرة ، بعد ان القى بالفأس بعيدا .. واسرع عم زنائى واخرج غلبة السجائر من جيبه .. واعاد السيجارة الى قاعدتها ، ورشاد ، الذى داسه الحمار مرة ولم يستيقظ هب مدعورا ، والجماعة المعسكرون فى البر الثانى .. التقطوا هم الآخرون ، بشرى قدوم الماء واتجه الجميع الى صوب قلب التربة .. يتأكدون من صحة الرواية . فالرواية لو صحت لكانت معجزة .. فهذه السواقي الاربع المنحوسة ، تقم فى آخر التربة ، ولا يصلها الماء ، الا بعد ان يمر على عدد بلا نهاية من السواقي ، ولقد تحققت المعجزة ، ووصلت المياه تحمل معها

أعواد القش وفروع الأشجار ، وجثتين أحدهما لكلب ذلك أن جثث الحمير التي نفقت لم تستطع المياه وهي مازالت ضعيفة على حملها . . فذلك سيئة أخرى يتحملها عم زناتي وجيرانه ، فالى أن ماء التربة لا يصل إلا بعد أن يشبع منه الجميع ، فهو عندما يصل يحمل اليهم تشكيلة من الجثث - شهادة لله - لا تسر الناظرين .

وعلى الفور ، بدأت الجلبةبنى آدمية ، فى هذه البقعة النائية ، فى نهاية تربة بلدنا ، بدأت العمل ، البهائم مسحبت فى قسوة وعجلة . . ودارت السواقي واندفعت المياه تششق طريقها الى شجيرات القطن . . وتوزعت الاختصاصات ، زيدان ، الولد الكبير ، حمل الفأس ، وسار امام ماتصبه الساقية من ماء يقذف الحجر بعيدا ، ويقتلع مافى المجرى من حشائش ، يرفعها على حافتي المجرى وتسير المياه مدندشة كالعروس ، على دندنة سى زيدان ، الولد فهمى خلاص ، البحث عن ولعة للسيجارة لم يعد من اختصاصه ، عليه ان يمسك بالفرقلة ويلف حول الساقية وراء الجاموسة ، فاذا ماتوانت طرقت الفرقلة على ظهرها محدثة صوتا كأنطلاق البارود وتاركة على ظهرها شريطا من اثر الضربة ، ويعاودها مافاتا من نشاط ، ويتناوب عم زناتي من بعيد - احساسان ، الاول ، قضبه من اجل ضرب الجاموسة ، الثانى ، فرصة ، ان الولد فهمى ، ابنه ، كبر وبلغ مبلغ الرجال . واستطاع استعمال الفرقلة ويكاد الاحساس الاول يتقلب ، ويستعمل لسانه فى تأديب ابن الكلب ، اى فهمى ابنه ، لولا ان ياتيه ، صوت الولد فهمى يردد « سبع سواقي يدوروا ماطفروا لى نار . . يامنية القلب قل لى . . ازاي عشق الجبار ، يبقى النظر فى النظر ، والقلب قايد نار ، وتتحول الشتيمة الى زمة مسموعة ، ويتذكر عم زناتي ، على الفور ، ايام ماكان فى مثل سن ابنه فهمى ، وسمعه أبوه يشدو بالكلمات اياها ، ولحقه بكف غليظة على قفاه أوقعه ارضا ، وهو يقول له « حتى انت يامفغوص » وتحسس عم زناتي قفاه ، دون قصد ، وقال ، دون ان يلاحظ بلاش ضرب الجاموسة بانن ستين كلب « سبع ضربات تلهفك يا مفغوص » وهبت نسمة قوية ، سطلت عم زناتي ، وسرح . . ايام المرحوم ابيه كان يرفض استلام الارض لزراعتها . عيش الشعير ، علف الحمير هذه الايام . . الجلابيب الزرقاء . على اللحم . . و . . و . .

وانتقل الى حلم ، الولد زيدان ، خلص رى الارض من الدماغ للراس وينادى ، حل الساقية يا فهمى ، حل الساقية ياوله . . ويتقدم هو

عم زناتي ، يقف على مدار الساقية ، بهدوء يوقف الجاموسة ويحل غماها .. يمسك بالدشيدة ليرفع الناف عن رقبته .. مخاطبا نفسه فهمي م نام من زمان ، هم اولاد الايام دى يعرفوا سهر والا شغل : الجوزة قطعت نفسهم .. وتوقظه ، فى رعب ، عم زناتي نفسه ، طرقة فرقة فهمي يسوق الجاموسة ، وخيل اليه هذه المرة انها طرقة مدفع واستيقظ عم زناتي حائقا ، يلعن فى سره هذه المرة ، الولد العفريت ، وضايقه انه هو الذى نعس ، لا فهمي ابنه .. كما كان .. يحلم . ومن جديد ، اخرج السيجارة ، وحانت منه التفاقة الى البر الثانى للترعة ، وشاهد بجوار كل ساقية ، كومة نار ، وسحابة كثيفة من الدخان ، هى بلاشك لطرود الناموس ، ولا يقى من بيت بجوار الساقية ليلا ، من الناموس ، الا نسمات الهواء ، وسحابات الدخان .. وتحرك عم زناتي بنفسه هذه المرة . يجمع فروع الصفصاف التى كان زيدان قد قطعها ، وبجوار الحفرة التى أعدها للنار ، بدأ يكسر الفروع الى قطع صغيرة ، استعدادا لاشعال النار ، وتدخين السجائر وابداء الملاحظات لابنه فهمي ، ولاقلاق فرحات ورشاد ، شركائه فى الساقية ، والعزومة على جيرانه عند الساقية الثانية ، وربما على رجال الساقيتين المقابلتين فى البر الثانى بكوب شاي « يسهركم للصبح والنبي يا اولاد » ..

ولكن عم زناتي سمع شيئا ضايقه ، هو بالتحديد ، صوت ارتطام حوافي عيون طمبوشة الساقية بما فى البئر من ماء ، وكما تعرف ست البيت رهى فى الحجرة ان جاز الواور فى المطبخ ، قد نفذ من صوت تشخيره ، كذلك ، عم زناتي ، عرف ان هذا الصوت له دليل واحد ، هو ان ماء الترعة قد انخفض ، وان الساقية موشكة على الوقوف ، وان كمية الماء التى تنزحها الآن ، تضر القطن اكثر مما تصلحه ، حيث ان رى الارض سيستغرق اياما ، يصفر القطن اثناءها وتتهدل وربقاته ، واسرع الرجل الخبير الى شاطئ الترعة ، ليرى بالعين ما نبأه عنه السماع ، وهناك عرف الخبير اليقين م بالترعة من ماء لا يكاد يكفى ساقية واحدة ، فما بالك ، وهو موزع على سواق اربع .. ولم يملك عم زناتي وقد تصور مالحق القطن من خسارة ، سوى ان بنادى بما يشبه الصراخ « ولاد .. ولاد » وتجمع الاولاد على استغاثة الليل ، فهمي متسائلا فى خوف عما حدث رشاد وفرحات . وهب كل من عند الساقيتين المقابلتين فى البر الثانى ، على صوت عم زناتي .

... وعندما اجتمع الرجال حول الترعة .. راعهم مقدار التناقص

المتزايد في منسوبها ، وبدأت التعليقات حزينة ، ساخطة ، ساخرة شائعة ، لائحة ، وكلها منبعثة عن احساس واحد ، الفيظ المكظوم وانتهت التعليقات الى مرحلة اخرى ، الاقتراحات ..

- نلم على الغدان نص بريئة ونبعت تلفراف لبتوع الهندزه .
- لا - وكان المتكلم ازهرى خائبا - مش للهندزه ، لتفتيش الرى
- هو ده وقت الحنبلة ، ياشيخ تابعى الهندزه هى تفتيش الرى وتفتيش الرى هو الهندزه .

- يا جماعة ما احنا غلبنا تلفرافات .. عملوا ايه ؟
- يعنى نقعد ساكتين لما القطن يموت قدام عينينا ؟
- وهزت الجميع كلمات .. موات القطن ، ونقعد ساكتين ، ونفر عم عيسوى ، من رجال البر الثانى ، نفره من نفراته .
- نبعت تلفراف للحكومة

- هى الحكومة هاتعمل لكو ايه ؟
- شوفوا يا جماعة الكلام .. هيه الحكومة لازمتها ايه ان ماكتش تجيب للقطن ميه ؟

واسهم زيدان الذى جاء من ذيل الارض . بعد ما انقطع الماء عن الوصول اليه .

- يا جماعة انا تحت فى الدبل . كت سامع حاجه زى تكتكة وابور - بس .. لا تلفراف ولا حكومة .. مكنة الحاج طاهر .
عم زناى لابنه « ياتك الفم .. انت مالك ياواد ومال مكنة العمدة »
- الا ماله ومال مكنة العمدة . ياراجل الخوف من الله واسع ..
هو ان كان الحاج طاهر شارى لك جاموسة بالمقاومة .. هو القطن ان ضاع هاتعرف توكلها .

- يا جماعة عن نفسى - وكان الصوت لفرحات - انا مكسور له من السنة اللى فاتت فى خمسة جنيه ، غيرهم السنة دى بستة جنيه ونص واصلهم كانوا شوال كيماوى ، بتلاته جنيه ، وده غير كيماوى وبذرة السنة دى . يعنى لو اشتكاني جيبيعنى الدار ، ولكن وحق شباك سيدنا النبى ماسيبه ياخذ شوية المية اللى جاين لوحد ، واهتز زيدان .

- يسلم يميناك ، يا جار الهنا ، يله بنا يا جماعة على المكنة تكسرهما حتت ، احنا كلنا مجرحين له انا عارف ، ربنا سايبه ليه ده ماتقول ياشيخ تابعى .

- ياواد بلاش جهل ماتعرضش على حكمة ربنا .

— بله بنا يا جماعة .. بله .

وكانت فأس زيدان فى يده فرفعها على كتفه ، والولد فهمى شال فرع صفصاف ، وفرحات فأسه ، ورشاد عصاه أم جلبسية حديد فى اسفلها ، والتي ضرب بها ذات ليلة قط بريوى ، فانقطع نفسه ، وعم عيسوى فرقته ذات السوط ، وحتى الشيخ تابمى طالب الازهر الخائب ، فى يده عصاه أم يد معقوفة .. نهايته ، كل من الجماعة شد قبضته على مافى يده .. وتحركوا نحو المورد ، تحرك العطاش تاركين الاطفال دون قصد او تدبير ، لحراسة البهائم والغطيان .

— اضرب طلقة فى الهوا ياواد يا حسن .

— دى بندقية الحكومة يا حضرة العمدة .

— ياتك داهية امال أنا عارف انها بندقية امك بهانة ، هو انتم يا غفر شاطرين الا فى طواجن اللبن وانا جر الفته .

— اضرب نار ياواد يا حسن .. بس اوعى تصيب حد يا صعيدى تبقى قضية ومحامية ودوشة دماغ .

ورد عم عيسوى ، ها يضرب مين ولا مين يا حاج ظاهر ، وأرتب دلى الحاج ظاهر : انت بتتهجم على يازناتى .. والله لابايح الجاموسة من الصبح .

واغتاظ عم زناتى « ياراجل هو انت ربنا قطيعة الجاموسة على ساحها ثم لانه » اسكت يا ولد يازيدان بلاش شتيمه .

وتدخل فهمى بصوت ضائع فى الهيجة مهددا العمدة ، بأنه سيدبح له الجاموسة قبل بيعها ، وفرحات يقسم بالطلاق أن موته الليلة كويم وتكسر الوابور كويم آخر .. وانطلقت رصاصة فى الجو .. وتسلسل ولد والقى بفرع سنط امام الخرطوم الذى جذب ماء الترعة كله ، وعلا الضجيج ، ولم يستطع الحاج ظاهر ان يميز الاصوات ، بعضها يشتم والاخر يهدد .. وقره يطالب بتقسيم الماء .. ورايع يقترح أن يقف الوابور وتدور ساقية والشيخ تابمى سيبرق لوزير الداخلية ولوزير الاشغال العمومية .. والترعة تقف فاصلا بين الفريقين وصاح جدد من رجال سواقى البر الثانى .

— بس يا جماعة .. عاوزين نتفاهم .. ده برضه حضرة العمدة ، ولكن جدعا آخر ، امسك بحجر وحدد مكان الوابور فى الظلام وبعزم ابيه وامه والننت التى سيتزوجها من ثمن القطن ، وقذف بالحجر . وكان آخر صوت . تقطع اسلاك ، وتحطم أشياء صلبة . ووقف الوابور ..

وتجمع الماء فى الحفرة التى امام الخرطوم ، ثم اندفع يشق طريقه
سحب العطاش ، بين فترة همود على الشاطئين .. وتكلم العمدة .
شامتا الخنازير الذين يعرفهم واحدا واحدا .. وصمت الخنازير ،
وهو لا يعرف من هدد ومن سب ، ومن شتم ، بل هم أنفسهم لا يعرفون
كيف حدث او ماذا حدث بالضبط ، كانوا كمنين انتهى ثوا من مواجهة
امراة .. فهو فى دهشة واستكثار واستفراب بل وتكذيب لولا انه قد
حدث .. حدث فعلا .. وكان قائما .. كذلك الوابور الجريح .
وهم الحاج طاهر ، ان يبعث فى احضار الوابور الثانى ، مع
الفوانيس والكلوبات تجعل المكان مثل الظهر .. لولا ان قلبه لم
يطاوعه من الداخل .

وفى الصباح ، اضاءت الشمس الحقول .. واصبح عم عيسوى
هو هو عم عيسوى وليس عم زنائى .. وتكتك وابور من جديد .
وعند مرور اهالى قريتنا على حقل العمدة لم يصدقوا الحكاية
التى مازالت ساخنة ، فقد كان عم زنائى وعم عيسوى وفرحات
يفسحون القناة امام مايقذفه الوابور من ماء التربة فى غيط العمدة !
وعندما تجابههم الرؤية بمايحكونه ، يتلفت بعضهم الى بعض فى
سداجة قوية ظاهرة ويقولون : مين عارف اما ييجى الليل هايحصل
ايه ؟!

الليل .. الرحم

.. الاظلاف الستة عشر تضغط وجه الارض في قبلات متلاحقة ، ثقيلة ، تاركة خلفها صفين من الاقواس الهلالية .

سلاح المحراث يشق سطح الارض . قبل أن تندمل شفيرتا الخط المشقوق يستط وسطه سرسوب منتظم من حبات الذرة فيلتئم عليها - كالرحم - بتهيا لميلاد جديد .

كف عم الوهيدي اليسرى تمسك بيد المجراث خشية أن يسيخ اعرق من العمق الذي يريده لانبات الذرة . يمناه تضم احبالا طويلة تنتهى الى آذان بقرتين سوداوين ، يخلص نسبهما بحكم المجاورة فى الزمان والمكان ، الى نسب عم الوهيدي . بالاحبال الموصولة يعبد الرجل البقرتين او احدهما الى الخط اذا ماعن لايهما أن تنحرف عنه .

على الكتف اليمنى ، تستقر قلقة فرقلة تلسع - عند اللزوم - الجلد الاسود الغطيس ، وهنا يبذل العجوز مجهودا منتبها : ليحفظ توازن العمق والاستقامة للمحراث ، وليشرح ظهر الحيوان بالسوط ، وقبل أن يفلت منه واحد من خيوط العملية ، يرتفع صوته مخاطبا واحدة من البقرتين يميزهابشدة ودودة من اذنها . - لا .. ارجعى ..

وترجع البقرة بعد أن تنفض راسها نفضتين : عليهما تمللم او مشروع تمرد مضى عليه ستة آلاف سنة ولم يتحقق ، على انهما - النفضتين - لا تخلوان من عتاب دينى صامت مستسلم قدرى حزين .

على هذه الارض نفسهارعى عم الوهيدي جاموسة المرحوم ابيه ، كانت الارض هيشة ، تغطيها اعواد الفاب الرفيع واشجار الطرفة والسمار ويغرش سطحها حصير من النجيل والحلفاء ، وفى الحوافى شجيرات السريس والجلالوين ، ويركد دائما عمق اصبعين من الماء يسمح لسمكة او ضفدعة او ثعبان مائى أن يعمر بالحياة سطح الهيشة .. ويحار العجوز ، الان ، كيف أن الالباء الهبل تركوا ارضا واسعة كهذه هيشة ، لجرد رعى الجاموس الاعجف والبقر الناشف . لم

يقتنع بينه وبين نفسه ان الارض يفصلها عن البلد مشوار طويل .
كان صغيرا لا يستطيع ان يرفع مقطف السباخ الى ظهر الحمار
يوم تعارك مع الواد بركات ابن ستهم . يومها أثلّم العيال - تاركين
البهايم تنحت اوراق النجيل . خلصوا رقبة بركات من قبضتي
الوهيدى « بقوله روحى لى ياهوه » ..

- كانت الارض دى كلها هيشة ياسيدى الوهيدى ف السؤال
من امرأة ابنة عبد الشاطر . مناسبة من تلك التى ينتظرها عم الوهيدى
ليفء عليها مما رآه بعينه هاتين .. البلد ، اكوام السباخ ، الدور
التي كانت تشفى بالرجال والخير وصفصفت على امرأة ، بيوت عائلة
السؤال ، التى سمع من ابيه انها قامت كالنبات الشيطاني ، أسماء
الصف الطويل من نظار الوقف . لكن الوهيدى - اليوم - لا يصلح
لاسترخاء المصطبة ، ولف السيجارة ، وولمى يابنت عودين حطب فى
فى الطاجن ، وهاتى كنكة القهوة وفنجان البيشة ..
التفت الرجل الى امرأة ابنة ، الجهامه المنبسطة التى استاثرت
بتفاصيل الوجه .. مطلة . تجاهل السؤال عن تاريخ الارض . استفسر
عن كمية تقاوى الدرة المتبقية ..

عندما استندار المحراث يشق الخط الثانى كان عم الوهيدى قد
قرب على الانتهاء من حرث ارض الهيشة وتحويلها الى حقل ، طاويا
دون قصد صحيفة ربما هائلة ورخية من حياة الهيشة ..
ادار البهائم .. فى وسط الجسر الذى اقامه السيد ابو دراع ،
سلط عم وهيدى سلاح المحراث . شخلل بالفرقلة . الاظلاف غاصت
فى الارض لترفع الحد بين ارض عم الوهيدى وساحل السيد
ابو دراع .

من وسط الهيشة التى قدت حقلا ، رفع عبد الشاطر ظهره . كان
يعالج بصبر خلع جذور الغاب . قبل ان يتحنى لمح المحراث . البقر
يتعثر فى شق الحد .
- واد .. واد يافتح الله .. على الطلاق ابوك اشطر رجل فى
البلد .

فتح الله لا يرد . الشغل لم يدعه . فلاح خفافى . ظهره يكاد
تنكسر نصفين . مع انه يعمل فى ارضهم لكنه ينتظر غطسوس
الشمس . على انه - فتح الله - حقيقة لاتزهه صفة الشطارة ،
فى ابيه بالذات ، ومن أخيه عبد الشاطر على وجه اخص . فى اعماقه
ان اخاه عبد الشاطر - بشعره الاسود الهبابى الخشن يغطى جسمه

ورأسه ووجهه ، بكلماته القليلة المتقطعة - جنس آخر . دون ان يشرح عم الوهيدى فكرته من ضم قطعة الارض التى يزرعها السيد أبو دراع ، فهم عبد الشاطر كل شيء . ليس بالتحديد فهم ، أحسن الفكرة ، كالجسم المرقور يحتوى بحجرة دافئة تلفحه كل حرارتها . إضافة ساحل السيد أبو دراع . تخلق حقلا مربعا يستهوى الشهوة والفتنة فى روح عم الوهيدى ، كما تستهويها فى روح ابنه عبد الشاطر ، الوهيدى الثانى .

عبد الشاطر لم يتذوق مايمكن ان يسمى معارضة اخيه فتح الله لفعله أبيه . عبد الشاطر لا يدري اتيان مايشكل دفاعا عن فعله أبيه . ارادة أبيه كسقوط المطر ، كموت طفل صغير .. اللهم لا اعتراض . - جأتك الفم ياد يافتح الله .

أحسن عبد الشاطر حيود فتح الله .. تضايق . - واد يافتح الله .. أقولك .. والله .. ما انت نافع . أمسك عبد الشاطر بذقنه ، تغطيتها ابر الشعيرات كجلد القنفذة . الخط الثانى شقة عم الوهيدى فى ساحل السيد أبو دراع . حامد لمح السيد ابودراوع مقبلا جريا قاصدا عم الوهيدى . - حوش يا عم عبده !

قبل ان يصل السيد أبو دراع الى عم الوهيدى كان سوط الفرقة قد لف حول رقبته ، وقبل ان يقذف السيد أبو دراع السكينة الطويلة ام حدين والثى يربطها دائما على اللحم لصق فخذه ، كان عبد الشاطر قد احاطه بذراعيه من الخلف . كانت فأس قد هوت على رأسه . وانبثقت نافورة دقيقة من دم احمر . التقت عيون فتح الله وحامد . مذهولين كل يسأل الآخر مرتعبا .

فك عبد الشاطر ذراعيه . سقط السيد أبو دراع . ابن الليل التائب .

اجال أبو دراع فى من حوله من الرجال عنيين مفبشتين . وآهم .. لاسبب انعكاسهم على انساني عينيه ، عليها صورة قديمة تخيلها وانبعثت من داخل مخه كما انبعثت على طرف لسانه أو من مراكز النطق من مخه جملة اعداها قبلا .

- معلش .. جرة اللى يعيش نعمة بين الديابه .

- ٢ -

فتح الله تنقله الخطوات الحائرة . الليل يقارب ان ينتصف . فى عينيه الظلام رفع الفاصل بين البلد والحقول ، بدت له الجهة

كلها قطعة بلا نهاية من السواد ، الدور ذاتها نامت ، الكلاب على السطح
وفى الحارات تتناوب النباح .. تترصد الغرباء والذئاب وسيدنا
عزرائيل الذى يبط ويقبض الأرواح . العفاريات انطلقت من عقاليها
تحت الأرض . القطط والكلاب والأرانب التى تنسل من أركان
المدارات ومن فوق الكوام السباح والتنفس الذى يسمع ولا يرى
مصدره .. حقيقتها فى يقين فتح الله عفاريات متخفية . فى القاعات
المظلمة . الرجال والنسوان والعيال فى سابع نومه . على المصاطب
المسطوحة ، على قباب الأفران ، على الحصير ، على قش الارز ، المهم
ان عيونهم اغلقها النوم ، واستسلمت اجسامهم للراحة . خارج
الدور لا حياة لغير القطط والكلاب والعفاريات والذين تعكرت دماؤهم
ولم يصاحبوا الفراخ فى استسلامها للنوم مع غطسة الشمس .

.. من خلف جسر المصرف انحدرت عصابة من الرجال بندقية
مجزر معلقة فى كتف كل منهم . الجلايب مقروطة عند الركب .
ينامون لا تحصي بهم النسمة نفسها . امترضهم تلب عم السبخاوى .
تشممهم بصبص بذيله . تسلقوا السطح . سعل واحد منهم انظارا
ان ينادى عم السبخاوى . البر امان . اعطى الرجل الإشارة .
هبط الآخرون . كوز الشاى على قوالج الدرة المشتعلة فى الطاجن .
جوزة نحاسية صفراء سحبت . مع المعسل تحترق تعامير الحشيش
بدا التحفظ . على اولاد الليل . المطاردة - رغم كل امان - دقات
قلبيهم . عم السبخاوى . خفير الحكومة القديم لم يفته قلق ضيوفه .
قدم لهم القرب . فتح الله بن عم الوهيدي . فتحوا سيرة السيد
أبو دراع . حزن بين ان يكون عميقا او مالوفا - يرسم على اوجهه
الرجال - ايمانهم ان القتل قدرهم . تطاردهم عقيدة أن من قتل
يقتل .

فى انتظارهم الطويل للخاتمة يقتلون اذ يقع واحد منهم . الحزن
ليس من اجله وحده . العقيدة اللعينة تطاردهم ، وتحقق ، عم
السبخاوى - هامش من هامش رجال الليل لا يحس عمق كريبهم .
شرد واحد منهم نفسا من الجوزة . طرد الدخان من منخاريه كالبندقية
ام روحين . وجه السؤال الى فتح الله .. من قتل أبو دراع .
فتح الله ماخوذ . بدا له جلساؤه من الرجال صورة خرافية لابي
زيد الهلالى سلامة ، الوزير سالم . الصور البشرية تملأ ملامحهم ،
أكتهم اولاد ليل ، لا ينامون فى المغرب مع الفراخ . خال رءوسهم
مخلوقه واقفة لاتعرف الانحناء لاحد . يستيقظون مع حلول الظلام .

فى الليل الدنيا - لا الارض - ملكهم . آحادىث ابيه مع السيد ابو دراع
 .. والله يا ابنى ما فى احسن من اللقمة الحلال .. الضحكة اطلقها
 ابو دراع مجاجلة . ابو دراع يطلق كلماته بلا خوف او لجنجة . حلال
 والا حرام يا عم الوهيدى .. لا تؤاخذنى ، انت رجل كوالدى ، يعنى
 عيلة السوالم لاه واخذة كانت الارض ارض ابوه . انا سمعت وانت
 ادرى انهم ناس اغراب عن البلد . كل اهالى ابلد شغالين عندهم .
 جابر افندى ابو سالم ياما ضرشى بالشلوت وانا بعزق فى ارضه
 بالفاس . بعد كده على الحرام يا عم الوهيدى بنفسه كان يقوم بولم
 لى السبجارة . يا عم الوهيدى ان عشت نعجة تأكلك الديابة . ياما
 اشتغلت فى اراضى اولاد الكلب . ناس تخاف ولا تخشى . عم الوهيدى
 لا يعترض ، اكن الحلال والحرام بينهما التفرقة جليه كالخط الابيض
 والخيط الاسود . اسمع يا عم الوهيدى .. انا بلا زوجة ، لكن على
 الطلاق ارض اولاد الكلب حرام ، اسمع ، اسمع يا رجل يا عجوز ..
 رد على .. ارض السوالم تعبوا فيها ، عرفوا فيها ، كل اهالى البلد
 نسوان ورجال وعيال ، شفاه عندهم ، زين الحلال وفين الحرام . الرجل
 العجوز يدعك عقب سبجارة فى سمك فتلة دوبارة احترق حتى آخره
 يدعكه بطرف سبافته فى ارضية المنضرة . يلتفت الى السيد ابو دراع .
 يشب من على الارض ، انزلت عباءته الامبريال من على كتفه . لم
 يهتم بلدها . اسمع يا واد ياسيد ، اسمع ، رد على .. يعنى ياسيد
 عدت رجل ، يعنى ياسيد عدت بتاهم ، عدت بتعرف ، رفعت رأسك ،
 رد على ، رد على ياسيد ، عيني فى عينك ، فهمم بن زينه لما مسكوا
 مراته مع جابر افندى ابوسالم - وفيهم قام سم بهايين جابر افندى ،
 مين قتل فهمم بن زينه ، رد ، رد على ياسيد ، عيني فى عينك .
 فتح الله لا يعرف بالتحديد من الذى قتل السيد ابو دراع . السيد
 ابو دراع كان رجلا ، لكن من قتل فهمم بن زينه . اتفق المتسائل
 الذى يقاوف بفكر فتح الله بعوزه التعبير عنه . كلمات ابيه تنطلق
 كطرقعة الفرقة . انكر فى التحقيق انك ضربت ، حامد هو الذى
 ضرب . حامد ابن الدار ، امه طرف قرابه ، لايم انا كانت قرابه بعيدة
 ولد وترى كابن .. كان فتح الله يحب السيد ابو دراع . كان يستشعر
 نوعا من الفرح . سيصير ان جارين فى الارض . سيسمع منه
 حكايات الليل . لكن يا عم سيد انت خلاص ، قصدى شغل الليل
 .. سبته ؟ لكن يا عم سيد من قتل فهمم بن زينه ، مين قتل فهمم بن زينه
 انتقاما لحساب جابر افندى . انت لست كاخى عبد الشاطر ، عبد

الشاطر طبيب ، راجل قبيط ، يحب أباه موت ، يخلق الشغل في القبيط من تحت الأرض ، قبل الفجر ديله في اسنانه الى القبيط ، راكب حمار ، صاحب بقرة ، الفأس في يده كالسجارة في يدك ياعم سيد ، يحب طين الأرض أكثر من حبه لحريمه ومرة كان يتغدى وانسل عود برسيم مع اللقمة ، لم يرمه ، ضحك ، ياواد يافتح الله كله خلقه ربنا ، البنى آدمين والبهائم والسريس والبرسيم .. فكرته الشابة أن فتح الله خسران .

هانم - في غندرة - تلقى تحية الليل على الرجال . الحديث الدائر عن قتل السيد أبو ذراع . فتح الله ، صدقوني ، لم يقتل السيد أبو ذراع . الذي قتل هو ولد شغال عندهم . حامد . فتح الله يؤذيه من دفاع هانم عنه وصف حامد بالشغال . حقيقة حامد ليس ابن عم الوهيدى ، ليس أخا لفتح الله أو عبد الشاطر ، هو يعمل في القبيط والبيت ، هو منهم أو ليس منهم مسألة لم تطرح على ذهن فتح الله ، لكنه لم يخطر ببانه أن حامد شغال . وقف عم السبخاوى ووقف فتح الله . الصينية حملها من على رأس هانم . بهدوء وضعت امام الرجال . على طرف المصطبة جلست هانم تعد الشاي . دعت فتح الله الى مشاركة الرجال الأكل . عاودت تأكيد اتهام حامد بقتل السيد أبو ذراع . عم السبخاوى وقد فتحت له ابنته الطريق اندفع . حامد هو القتال ، ولد ضائع بلا اصل ، بلا فصل ، ولدته امه في بيت الحاج وهيدى ، ماتت وهو مفقود ، فتح الله ابن ناس . عم السبخاوى يسترضى ابنته هانم بمدحه فتح الله . فتح الله لم ترقه الطريقة التي عرض بها الموضوع امام الرجال . فهو لا يعرف من الذي قتل . حامد سواء كانت فأسه هي التي ضربت أم لا ، واحد من العائلة . صمم على أن يدفع عن حامد الاتهام المؤكد . الجراة لا تواتيه . سمكت .

الصمت الذي يلف الجهة كلها امتد الى مصطبة عم السبخاوى داخل القاعة ، شخير عيال عم السبخاوى ، سمع من حجرة مجاورة ، طال الصمت . طلب احدهم من فتح الله أن يستأذنهم . تدخلت هانم من القاعة الحزانية . خفت ماظنته اساءة الى فتح الله . ماعبون ايوهم ، ليس في الامر سر ، وراءهم سرحة ، عينهم على مواشى واحد غلبان يسير قونها الليلة . نددت بالرجال . فتح الله ليس غريبا عن بيت السبخاوى ، مع أن الضوء ضعيف أو منعدم فقد لمح

فتح الله سنة من أسنان هانم مغطاة بالذهب البراق تلمع خلف شفتيها .

- ٣ -

فى الصباح اذ انكرت هانم ان فتح الله ينام فى القاعة الجوانية لم يكن قصدها ان تكذب على الرجل الكبير الذى تهىء نفسها لان تدور فى فلكه . خوفها من جهامة عم الوهيدى الجمت لسانها . تخلق عنها تفاصحا . فتح الله بالداخل بين اليقظة والنوم خمن تقريبا ما حدث ، ثم قرصه صوت رشاد بن جابر افندى يسأل هانم عن اخواتها . رشاد افندى يشتم اولاد ستين الكلب . يتسائل مستنكرا الا يسرحون الى الفيط دون ان يوقظهم من النوم عشرين مرة ، ويسوقهم من الدار الى الفيط كالحمير .

تدخل هانم القاعة لا تدرى كيف تتحدث الى فتح الله تريد ان تؤدى ما يشبه الاعتذار . سى فتح الله عارف . رشاد بن جابر افندى كاهله . ناس لسانهم طويل . ملعونة لقمة العيش التى تذلل الناس . السيد أبو ذراع هج من وشهم . هانم اقترحت على أبيها ان يقطع علاقاته بجابر افندى . وان يعمل اخوتها فى اراضى الفلاحين . كله عمل باليومية . عم السبخاوى اتهم ابنته بنكران الجميل . العمدة يهانم خيره راكبنا ، شغل السبخاوى خفيرا فى الحكومة ، وانتقاه من بين الخفراء ، كان تابعه كظله . هانم تسقط هذا الجزء من دفاع أبيها من جابر افندى . يحس فتح الله ان فتاته محاصرة . لا يهم ، المهم انت يهانم ، بعدك لا شيء يهم ، امسك بيدها . تفحص وجهها . فيه من أبيها سمرته ، من امها صفرة باهتة . أحس به لامعا نظيفا . تطل من أعلاه عينان . اطال فتح الله التحديق . النور الساقط من فتحة السلم على صحن الدار منعكس على وجه هانم . العيسسان سوداوان . الحاجب رفيع . الرموش سوداء طويلة . الرموش تتلاقى وتنفرج . الكحل الاسود كان قد صيغها فى الصباح الباكر قبل ان يستيقظ . سألها هل تعرف ان عينيها حلوتان . هانم بين ان تقف عند الحديث عن حلاوة عينيها ، تخرج من الحفرة التى أوقعها فيها ابوها واخوتها وامها ، وبين ان تطلب منه ان يمر سريعا . عليه ان يعرف ان فتاته مؤدبة . البنيت ياسى فتح الله بأخلاقها . فتح الله يؤمن على الحكمة التى ألق بها هانم . امسك بيدها . تأملى عينيها . سأل هل حقا تحبه . هانم تعترض ان يرحل بها فتاة بعد الزواج الى بلاد بعيدة . رجل الليل بلا بيت . لا يملك نفسه

خارج للسرحة لا يعرف متى يعود . وقد لا يرجع ابدا . هانم ..
 إن الليل رجل .. رحم الله سيد أبو دراع .. لم يعجبه حال عائلة
 السوايم مع أهالي البلد . هانم تعود يشدها خوفها . أنت فين ياسي
 فتح الله وأنا فين . هو يكره منها هذه اللغة أو هذه الكلمات . هي
 تلف بالكلمات تخفي بها رفضها متعلقة بالفنى والفقر . الناس اولاد
 تسعة . ضفط على يدها . تأوهت ، سحبت ذراعها . خنقه صونها
 الناعم المنغم الساخن . كلسعة ضوء القمر . ضفط يدها . ركبها
 غضب مفاجيء . نشجت . انفجرت باكية . ليست واحدة من اباهن
 فقيرة لكنها تحافظ على شرفها . الحلال احسن . ارتبك . تذكر
 اللحظة التي فوجيء فيها برأس السيد أبو دراع مدشدشة بفعل
 فأس . فأسه هو . فأسه أم فأس حامد .. بتحسسه الحابي ، هانم على
 حق . المرأة على غير زوجها حرام ، لم لم يتزوج السيد أبو دراع ..
 حرام أم حلال - ماذا كان سيقول السيد في هذه المسألة . بارتباكها
 تقدم بعنبر أثينا . هو يحبها . لا يفرق بين نظرة تمسح وجهها وصدرها
 ونهدية ، بين دقات صدره هو كالطبل اذ يسمع صوتها وبين يده
 تضغط يدها . خالتي نرجس فتحت باب الدار . عقب الباب المرتكر
 على فتحة صخر خلف فوقها . يزيق . مسحت هانم دموعها . لم
 تنفأ إلى فتح الله لكنها كانت تراه . حدثته بصوت رائق ، صوت
 لا اثر فيه لدوء أو نشيج أو وعظ أو ارشاد . عليه ألا يزعل . هي
 الأخرى - بصوت خفيض - تحبه .

الأم حيث فتح الله بحفاوة . سيدة تربت في بيوت الثراء . بيت
 جابر أفندي . سرها احساسها بقيمة ان يكون للإنسان أرض يملكها
 وجاموسة وبقرة وعلى سطح بيته كوم الذرة . شرفتنا ياسي فتح الله
 بأبني . أبوك رجل ولا كل الرجال . تبحث عن كلمات ترفع بها الحاج
 وهندي عن حضرة العمدة . قدمت ارفقة ساخنة لفظورد . الى جانبه
 على المصفاة جلست هانم تنفخ في القوالج تشعلها في الطاجن . تعد
 الشاي . فتح الله لا يحب ان يشرب كرسى معسل على الصبح .
 ليس ثيبفا منقوعا . أين هو من ايها السبخاوى ، الكيف الذي
 صاحب الحوزة قبل ان تولد هانم وقبل ان يتزوج الام نرجس .
 يمسلك القوالج الملتبة بين سباته وابهامه . يرصها على المعسل .
 يضغطها بطن ابهامه . احسنت هانم بوضوح باحتقار لفتح الله .
 استصفرته . ليس رجلا . اولاد اليسورين تنقصهم الرجولة دائما
 احسنت بعمق بنقيصة لا تفتقر في اخلاق فتح الله . الا يستفتح اليوم

يكرسى معسل . فتح الله لا تذهب ظنونه ولا يصدق - لو سمع - أن تكون هذه معتقدات وليفته . هذه بالدات بعدها مزيه تقربه من الناس الذين يكره تعالىهم ، عائلة السوالم ، الذين لا يشربون الحشيش إلا في الليل .

حوشنى باسى فتح الله . استغاثه من السطح لواحد من أخوات هاتم . حاولت أن تمنع فتح الله من الصعود إلى السطح . صعد . آخران وليفته الذكور الثلاثة رؤوسهم مكشونة في الشمس ، تبقعها فتلات من الشعر . الجلدة حمراء ، بيضاء مشقوقة ، ينز منها الدم . ليس دما أحمر ساخنا كالذي أتبع من رأس السيد ابودراع . دم أصفر ، أبيض ، دم دهني . امرأة غريبة . ليست من البلد نجاس ناهضة على قزحها ، تشد بقوة قطعة رقيقة من جوال سماء كيماوى . طبقة القطران الأسود الرقيقة التى يسمع بها الجوال من الداخل ملتصقة بجلدة الرأس المتقيحة الجرداء . المرأة تشد قطعة الخيش بقوة . قطعة الخيش الرقيقة تتمزق مرة بين يدي المرأة . مرة يطلق الولد صرخة استغاثه . شريحة من الجلد المعبود تتمزق ملتصقة بالخيش . خالتي ترجس ممسكة بكل قوتها . هاتم ركبها دفريت . شتمت أمها . لعنت الأولاد وأباهم . لعنت اليوم الأسود الذى ولدت فيه في هذا البيت . سحبت فتح الله من يده . متى سيتوب الله عليها من هذه الدار النكد . رصت كرسي معسل . مدت فاة الجوزة إلى فتح الله . لقمها وشد نفسا عميقا كما لم يفعل من قبل . يقاوم رغبة في التقيؤ . أحس الحرج مرسمًا على وجهه هاتم . حاول أن يخفف عنها . أحس بها تريد أن تبكى أو أن تفتح الله أمسكها من يدها لصحبته إلى داخل القاعة الجوانية . تعرف أن البلد كلها تصف أخواتها بالقرع . لحظة تعيسة من حياتها حقا أن تحض المداوية لتعالج أخواتها وفتح الله بالدار . لم تصل إلى أن العسلام الواقعة ما يختلف عن معاشتها ، باحساسها أن علم فتح الله بقراخ أخواتها شيء ورؤيته للقراخ معروضا تحت أشعة الشمس شيء آخر ، لحظة ضعف ساحقة تعيشها هاتم . تريد أن تفعل أى شيء تشعل في البيت حريقا . تطرد فتح الله . أحست نحوه برغبة في ألا تراه . . منذ عرفته وهى تسير على حبل . . تخفى عنه حياة أيتها وأمها وأخواتها . من أجل ماذا . هو لا يستحق . ولد مفعوص ، ولا خير فيه ، ويسرق من أبيه . من لا خير فيه لاهله لا خير فيه للناس . انها تكرهه . تكرهه . ملعون هذا القاتل المجرم ، قاتل كآبيه الوهدى

الملعون قتل صاحبه من أجل سمكة . اسمع يافتح الله .. السبخاوى
 يقوم باخفاء المواشى المسروقة . عليك أن تعرف . صاحب عملية
 الافضاء او التفضض رغبة بارزة أن تتعري هانم امام فتح الله .
 فتح الله تشغله شفقة عميقة نحو هانم . لم يلتفت . توازت داخل
 هانم عملية الافضاء مع رغبة فى أن تخنق فتح الله ، تخنقه بيدها ،
 يديها تضغط رقبتة ، وتلتصق به ، تحضنه أمسكت بيد فتح الله .
 ضغطت دون أن تحس .! كانت تبحث عن كلمات ممطوطة لصياغة
 الخبر . مازالت حالة التقيؤ تشغله . رغم ذلك شدته جدية قاسية
 تشكل ملامح هانم وتهزها . انفراج واضح بين شفقتها . وفوجئ
 تماما . هانم تدس غابة الجوزة وتطبق عليها فمها . نفثت من منخاريها
 سهمين حاسمين من الدخان الكثيف . تموج دخان متسكما بين فمها
 والهواء الخارجى . عندما وصلت هانم الى ان البهائم المسروقة يخفيها
 ابوها فى دوار جابر افندى ابو سالم ، حضرة العمدة ، كانت قد
 انتهت من قذف الخبر كانت قد تخلصت من توتر عضلى شد داخلها ،
 لم تدر هى الاخرى سببه ، بعده احست بالضوء يغمر المصطبة .
 بارتياح ، حب الهى لفتح الله ، للجوزة ، لايها ، لضعفه ، لامها ،
 لاختها القرع ، ليس ذنبهم ان ربنا خلقهم قرعا ، حين نحو دارهم
 بطبقة الهباب فى سقفها ، القاعات ، المصطبة ، ألباب الخشبى ،
 السلم ، جذع النخلة المنجور ، البلاص القاعد بجوار المصطبة ،
 القرن ، الكانون . التفتت الى فتح الله . ولد طيب ، برىء ، لا يجرؤ
 ان يذبح فرخة ، هجر اباه ، دارهم ، يتحدث عن امه كطفل ، لم
 يرها ، ماتت قبلا ، يحب خالته ، ماذا تستطيع ان تقدم له ، كيف
 تغديه ، عليه أن يعود الى ابيه ، الى دارهم ، لا يجب أن يحرم من
 خير ابيه ، لا يجب ان تكون هى سببا فى شقائه ، عليها ان تمنعه
 - بعد ذلك - عن سرقة الحبوب من سطح دارهم عليها - بالذات -
 ان تفصل بينه وبين رجال الليل الاهبل .. يريد ان يكون منهم انهم
 مساكين وحياتهم ليل ليس لهم بيوت يملؤها أخير كبيت فتح الله .
 سألها فتح الله لم هى سارحة . افاقت . فتح الله .. يحبك ..
 صدقنى .. قلبى ابيض .. مايشيلنى من حد . حتى عيلة جابر
 افندى .. ياسلام يافتح الله .. ياسلام ، قاومت رغبة مخدرة للناس
 المت بجسدها كله . احس فتح الله كربا يملؤه . لها ان تحب كل
 الناس كل شئ الا عيلة جابر افندى ، الا عيلة السوالم . هم ان يسألها

بدأت له عليه بأسرار الليل . هانم . . من قتل فهيم بن زينه كيف ؟
لا تذكرينه فهيم الذى القى السم لمواشى العمدة وهى فى الدوار .

— ٤ —

بعد صلاة العشاء على المصطبة الممتدة امام دكان الشيخ سعيد قعده
الولاد الحارة ، يتخاطفون سيجارة ، يرصون كرسى معسل ، يتراهنون على
كسر اعواد القصب بسيف كفاليد ، يتراهنون على اكل قطع الصابون
وشرب الجاز وسبب خفى آخر ، التعليق على نسوان الحارة عندما
تمر عليهم فى الظلام . بعد الطبخ والاكل وتوزيع العيال تتنادى جارات
الحارة وكل جماعة قافلة صغيرة تأخذ طريقها مارة بمصطبة دكان
الشيخ سعيد الى التلول تفك تكة السروال والجلسات متقاربة الاسرار -
هى الاخرى - حمل ثقيل احتجزنها يوما بكامله التخفف حالتهم ،
تنتهى الجماعات بعد أن يتخففن . عند العودة ليس شرطاً ان تكون
كل جماعة هى بذاتها التى خرجت ، يعاد تشكيل الجماعات ، التلول
حول البلد ملك للحريم فى الليل .

فتح الله يداور ابن خالته . يريد ان يطمن على عودة هانم من
التل . كل عريس يرقب عروسه من رحلتها الى تلول السباخ . لم
تعد هانم . ان خالة فتح الله تشده ، ولد عفريت هو الذى كشف
فتح الله . قم يا فتح الله شوف خالك . الغائب حجته معه . تعملها
المراة ، لو ان لها الفرض ، وهى نائمة الى جانب زوجها .

— ازيك يا فتح الله . لبة الجاز معلقة على مسمار بالحائط . على
المصطبة تمدد الاولاد . الخالة قبلته من خده اليمين مرة ومن الخد
الآخر مرة . احتضنته . ضمته الى صدرها . امرأة فارعة ، عجوز
ماسكة حيلها .

ازيك يا حبة عيني . . عابته . الا تراه الخالة الا بمرسال . لفت
من بعيد . سألته عما اشتغله فى الفيط . فتح الله لم يشتغل .
تابعت لفها . استفسرت ، الصحة متوعة ياخالة . وهى تعلم انه
يتهرب . تنزعج حقيقة . سلامتك يا فتح الله ، الف سلامة ، خالك
تتحمل عنك . نسيت انها كانت تدأوره لتصل الى خلافه مع اهله .
تستقصى نوع تعب .

الف بعد الشر عنك . تتعب يا فتح الله وامك لا تعرف . ضمته الى
صدرها . طبطبت على كتفه . من يدري ربما لم يتناول عشاءه .
قدمت من المارحود . صحن الجبنة القديمة مدهوسة فى المش ، اللفت
واعواد السريس . فتح الله تغير . الخالة راته قد امتصه الهوال .

ابدا ياخاله والله انا حصان . آه يافتح الله ، يا حبة عين امك ،
هل تنكر ، عيان وتنكر ، لست أقل من امك . فتح الله لم يمسك
نفسه . لو ان الناس كخالته . بكى . قبلته على خديه فى طرقة .
ما عاش من انكى فتح الله . لا تعرف كم أعزك يافتح الله . سمع
اسم امه . نطقته خالته وكأنها تبسل ، كأنها تصلى على النبى .
لا يجب ان يبكى فتح الله وخالته على ظهر الارض .

فتح الله لا يود أن يعود الى دارهم ، لا يعرف السبب بعد يوم
حكاية السيد ابر دراع . . كان ولد شهم ياخاله . . فتح الله لو كان
يدرى ماسيحدث لمنع ، هو نفسه ، اباه عن ضم قطعة ارض السيد
أبو دراع الى ارضهم .

كان فتح الله يقيم جسرا . انتبه على زعقة حامد . ابو دراع كان
مقبلا جريا . تملل فتح الله . تمنى لو انه اعترف لخالته انه هو
الذى ضرب . ليلتها حاول ان ينام . تلف فى رأسه المشاهد . صورة
ابو دراع مرة جالس مع ابيه يرد على عم الوهيدى بلا خوف ، فى
شهامة . على الحرام باعم الوهيدى انا والبندقية فى يدي ماتطرف
عينى لجابر ابو سالم ، ولا لعيلة السوالم كلها ، عيلة فى عينى قش ،
لا الارض ولا الهيصنة تهز طرف عينى .

فتح الله لم يستطع ان يوفق بين ابو دراع الشهم وبين ابو دراع
ملقى على الارض ، على وجهه فزع ، ذلة ، انكسار ، فى لحظة لم
يكن هو السيد ابو دراع ، كيف . ترسم قطعة الارض الصغيرة .
هل كان عم الوهيدى يعلم . الاكيد ان لا شيء كان يمنعه من ضم
المساحل . وفيهم بن زينة . ليلتها طرق فتح الله حجرة عبد الشاطر ،
كان نائما استيقظ ، انت يافتح الله مدلع ، ولد خسران . لو ان
فتح الله تعب من الشغل فى الفيط ، لو اتاه النوم رهو عائد على ظهر
الحمار ! عبد الشاطر يخلق فى الفيط الشغل من تحت الارض .
نصيحة عبد الشاطر ان يعود فتح الله لينام .

كان الشارع ساكتا ، مظلم . لم تكن القرية موحشة هكذا ابدا .
الخالة تقاطع . نهايته ياخالتي .

لم يكن فى الحارة دار واحدة صاحبة قمر دار السبخاوى . شربت
كرسى معسل ، اثنين . لم يكن لفتح الله رقبة أن يعود الى دارهم .
غلبه النعاس . اسند رأسه الى الحائط . استيقظ . كان الليل
ساكتا . كان رجال الجوزة انصرفوا .

السبخاوى ممدد . الى جواره نام فتح الله . شد الكيس . توقف

فتح الله . أحسن نخجل . فى الصباح الضاحى استيقظ . لم يكن بالدار سوى هاتم . قدمت له كوبا من الشاي . سألته . حكى لها . استمعت اليه . حدثته . انت ياسى فتح الله وحياة سيدنا النبى رجل بنى آدم . الاعمار بيد الله . ابو دراع كان سيموت سواء ضربه حامد او لم يضربه . المينة مكتوبة على جبينه . كلنا سنموت . خفف عن نفسك ياسى فتح الله .

فتح الله سمع أننا كدنا قطعا انه لم يضرب ابو دراع . فتح الله قلبه خفيف . حامد هو الذى ضرب . فتح الله طرح ماحدث على هاتم . البراءة منها سمعها باذنه . يتمنى فتح الله أن يكون حاتم هاتم حقيقة .

الخالة لم تستمع الى تفاصيل الجلسات الطويلة . الخالة لم تزل صالة بين موت السيد ابو دراع والظوفة التى ألت بابن اختها . مصممة على أن تعيده الى دار ابيه .

السبخاوى يافتح الله يا ابنى رجل من قير مؤاخذة ، اسم الله على قيمة ابن اختى ، مش راجل ، لم يكن خفيرا فى خدرة الجكرسة ، سحب نسوان لجابر افندى ، جابر افندى رجل ذيله نجس . فتح الله يجابه أمه او خالته . المهم هى ، هاتم نفسها .

الخالة لا يعوزها الرد ، اللهم احفظ ولايانا ، يا بنى لسان الناس ، اسان الناس لا يبرىء نرجس زوجة السبخاوى ، هاتم تربت فى ماعون شين ، كل واحد حسب ماعونه ، والبنت يافتح الله يا ابنى لامها ، فتح الله لم يقتنع . هو سمع ، لكن ياخالة هل هذا يعنى ان هاتم معيوبة . يافتح الله . من قالوا عنها قبحه هى قبحه ، الخالة لا تعرف ماذا يعجب ابنها فى هؤلاء الناس . عيلة معيوبة من طاطا لسلامو عليكو . الخالة تستعرض ، السبخاوى ، نرجس ، حتى يا بنى عيالهم قرع .

فتح الله يقتنع تماما حتى نخاع عظمه بكلمات خالته . يضيف ان هذا شىء وهاتم شىء ، ياخالة سببى حكاية الزواج لن اتزوج . ترجح الخالة ان ابنها يناور . حاولت ان تصل الى داخله . أحسنت انه يكاد يفلت منها متخليا عن صدقه فى حديثه معها . وبالتحديد مخفيا نباته عنها . يحكمها عاملان : حبها الشديد لابن اختها ، اتفاقها مع عم الوهيدى على ان تعيد الولد الشارد . عم الوهيدى سدد بضرب الولد بالنار . هدد بقتله . الخالة هددت ان الولد قد يفعلها ويسوح فى بلاد الله . الوهيدى وافق على زواج ابنه من هاتم على

ان يقطع علاقته بأهل البنت . وصية عم وهيدى للخاله الا تفسدهم
للولد الحل الذي وصلا اليه الا بعد ان تكون قد غلبت معه . اذا احسنت
الخالة انه قد آن لحظة القاء الورقة الاخيرة . صارحت ففتح الله
بموافقة ابيه شريعة ان يقطع علاقته بالسبخاوى وعائلته .

- ٥ -

بتوجس وخوف - ممزوجين معا - بالرعب أمسكت الست جواهر
بالمقبض النحاسي الاصفر ، ادارته ، واربت ضلفة الباب ، انسلت الى
الداخل . فى وسط الحجرة تنتصب اعمدة السرير ، نيكل بيضاء
مربعة ، تنزل منها الناموسية ، كالمحمل ، الضوء الخفيف المتسلل من
ستائر النوافذ يعكسه طلاء الجدران الزيتى ، طربوش جابر افندى ،
الجنيه ، الكاكرولة ، الجزمة ام استك الاجلسيه ، وفردتا الجورب
فوق الرخام على الكومودينو تتدلى منهما حمالة أستك حرير . رفعت
الناموسية بحذر بالغ . صبح النوم يا حاضرة العمدة . لا تنتظر ردا .
لم يعترض على ان تزور اخواتها . يسكنون فى نفس التريبعة التى
اقامت عليها عائلة السوالم منازلهم وسراياتهم غرب البلد . على
الزوجة ان تكلف واحدة من الخاديمات اعداد دورة المياه . ابريق ماء
ساخن فى المرحاض ، آخر لاغتسال حاضرة العمدة .

فى منزل المرحوم ابيها ، بين اخوتها انفجرت الست جواهر باكية .
اقات من اللحم الابيض اهتزت . لن تتحمل اكثر مما تحملت . رجل
زناوى ، عياره مفلوت ، اقسمت الست جواهر بابنها رشاد ، كانت
تفضل الزواج من بائع فجل ، الاخوة يعلمون الا حيلة لهم فى الامر ،
هم انفسهم يفعلون مايفعله جابر افندى ، لا مفر لهم من مهاودة اختهم
الكبيرة ، عليهم ان يستعدوا الليلة لضبط جابر افندى مع واحدة
من نسوان الفلاحين اولاد الكلب فى الحجرة الملحقة باسطبل الخيل .
لم يبق الا ان ينام مفلوت العيار مع قبحاته فى حجرة النوم . استعد
الاخوة ، ابناء عمومة وخؤولة جابر افندى .

السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله .

تصافح المصلون . انتهت صلاة العشاء . عيال الحارة واولادها على
مصطبة الشيخ سعيد . نسوان الحارة فى طريقهن الى التلول .
بعد الذى منه يدققن فى اختيار الطوبة للمسح ، الخشية من ان
تكون الطوبة افراز آدمى جاف ، الاولاد على المصطبة لا يكفون عن
التعليق على مواكب النسوة . حج مبرور . كل سنة وانتم طيبين .
لا يمنع ان تكون ام الواد بين الجماعة . يصفعه ولد آخر على قفاه .

يابن الكلب وسر المصحف الشريف أمك كانت فى الوسط .

الدسيصة طرقت منزل المرحوم . واحد من خفراء حضرة العمدة . حماس شديد ألم بالست جواهر مع الاخوة تقدمهم كلوب ، دون ان يشعروا كانت وراءهم زفة ، الاخوة اولادهم ، باب الحجره الملحقه باسطل الخيول العربية الاصيله ، الكتوف ضفطت ، انكسر الباب ، اندفع الرجال تتقدمهم الست جواهر ، باقى المولد وراءهم ، فى ركن الحجره كانت تقف مرعوبة ، مرتعشة ، تشلها هبات برد داخل مسام جلدها ، دست جلبابها من راسها ، شدته بصعوبة ، نسيت السروال - كانعلم المهزوم - معلقا على مسمار فى الحائط .

خيبة الاسل حطت على الست جواهر . احس اخوتها بالارتياح . مواجهة العمدة لم تكن شيئا هينا . لحظة مرت او لم تمر . الاخوة وراءهم قعدت الحشيش . الست جواهر لحظتها ممتدة لم تنته من قبل ان تلد رشاد واخوته . من بعد ليلة زفافها وهى ترقب تسلل حضرة العمدة مع واحدة من الخادما . فى محاولة للافلات من اللحظة تقدمت الست جواهر قوية بدنية فيها عافية تكفى لشد نوزج او محراث تتعثر فيه بقرتان من بقر الفلاحين الاعجف ، رفعت يدها الى السماء ورن الكف على وجه هانم . هانم تلف بها أرجوحة لفات سريعة دائرية متلاحقة حتى لكان الأرجوحة ثابتة . هانم فاجرة كامها نرجس ، فاسدة كابها السبخاوى السحاب . كان الكف اشارة البدء . على الاخوة ان يجاملوا اختهم ، بالايدي ، بالارجل ، بالعصى . يسقط الضرب على هانم ، متكورة ، منكشمة ، مستسلمة ، الست جواهر لا تدري كيف تفرغ غيظها ، خيبة امليها فى انها لم تضبط حضرة العمدة . الضرب لا يكفى . همت ان تهجم على البنت وتنهش فى بطنها بأسنانها وبأظافرها فى الاماكن الحساسة . احتارت حتى الموت ماذا تفعل . كل تصرف مباح لها . حرة تفعل بالفريسة ماتريد . لحظة نادرة فى حياتها ، اثار عقلها على غير توقع منها . التفتت الى الاولاد والعيال . صرخت فى وحشية : ولاد ، ولاد ، جرسوها ، بنت السحاب ، قحبة كامها . وفى هدوء ، كالهواء النقى ، كان على رأسك طاقيه الاخفاء انسل رشاد افندى ابن جابر افندى لا يصدق ان هذه هى أمه . فى قرارة نفسه انها على حق وان هانم القحبة بنت القحبة تستحق اكثر مما حصل لها .

بنفسه رفض أن يقابل هانم حين طلبت لقائه بعد العشاء ، على سطحهم . فى المرة الثالثة ، حمل المرسال .. هانم لن تحدثك ، ستعيد إليك أشياءك ، المناديل ، زجاجات العطر ، الفستان ، حتى الفلوس ستسدها ، فتح الله نفسه يحس أو لا يحس انه منقسم . دماغه يملؤه طنين ، طنين تصنعه كل احاديث المصاطب ، تملأ الحارات احاديث جسور الترع ، مدارات السواقى ، قعدات الحشيش ، قعدات المعسل والنسوان ، النسوان الجالسات على قزحهن فى الظلام على تلؤل دابر الناحية ، ويتحسس السباخ يحذر بحثا عن طوبة ناشفة . هانم ضبطوها مع رشاد افندى ، مع جابر افندى ، مع فتح الله ، مع واحد من زوار ابوها فى الليل ، مع .. مع .. مع .. كماها .. كابها .. هل .. هل .. هل .. البهارسيا ، تقط الدم الاحمر ملء كف بعد كل بولة ، توحد كل ابناء البلد ، فضيحة هانم ملء كف دم وحدها ووحدتهم هى الاخرى . لا يستطيع فتح الله ان يضع اصبعه عليها ليقطعها ويستريح ، جزء منه وليس منه ، جزء من صدره ، اصم ، ابكم ، اعمى ، لا تصل اليه احاديث المصاطب والجسور والتلول والقعدات . جزء داخله يعذبه ، يشد عينيه طوال الليل ، لا تغمضان ، يصاحب خطواته ، يخنق صدره ، جزء فيه هذا ال « هانم » وحدها ، زلطة تشعوط النار كل ماحولها ، هى صامدة ، زلطة يسكنها جنى يتحكم فى قسماات وجهه ، فى مزاجه ، لا يتلقى اوامره منه .

قبل ان يستجيب لالاح هانم ، ليقابلها فى حجرة صديقة لها مر على خالته ، قبلته ، طبطبت عليه ، ازيك يا ضنايا ، تعالى ، تعالى ، يا فتح الله ، افعد الى جوار خالتك ، شبه المرحومة امك تماما ، سبحان الخالق ، يا حبة عيني ، الام تشبه من ياخاله ، اكانت شبيهك ، انزعجت الخاله . خالتك يا حبة عيني ايش جانبها لامك ، فرق البحر من الترفة . يا خالتي البطن واحدة ، انت وامى من بطن واحدة . آه يا حبة عيني ، البطن تجيب الزين والشين ، وابو فصادة والاقرع وراكب الخيل وخايب زمانه . قهقه فتح الله . افلت من قبضة الجنى اللعين . الجنى الذى يلد داخله ولا يتلقى اوامره منه . جنى حضور

هانم . آه ياخاله نو يسكن فتح الله في حماك حتى يوم القيامة .
لحظات الصفو الخائض معك وحدك . صفوك ياخاله لا يأخذ بأنفاسي ،
لا يخنقني ، معها هي الأخرى تصفو النفس ، صفو منقبض خائف
دائما . عرض علي الخالة ، هانم دعتة للقائها ، تربت الخالة ، ابن
أختها ، حبة عينيها لم ير وليفته منذ الليلة الملعونة ، في ليلة واحدة ،
أسسك بفتاته زوجة له . . افلتت منه الى يوم القيامة ، هو لا يقول
الى الأبد ، بعدت عنه في ساعتها . الغد يخيفه ، في يومه الجساري
هي ليست له . الغد في يد ربنا الذي في السماء . حين يأتي الغد
وبصير يوما حاريا هي ليست له لا يريد او لا يحب او لا يجرو على ان
يصدر حكمه على الغد . يكفى انها ليست له في يومه الآني . انها
- والعلم عند الله - قد تكون له في غده . اذ يتدحرج غده ليصير
يومه . عندئذ سيصدر حكمه قاطعا . هانم ليست له . قابلها ياابني ،
شوقها ، اسمع منها ، العيش والملح له حق ، اللهم استر ولايانا ،
وفوت على بافتح الله .

اللمبة الجاز معلقة على السمار المدقوق في حائط
الطين ، على الحصرة جلست هانم وصديقتها . كان سلاما
انتفض له الجنى داخل فتح الله . انها هي هانم . الصوت مرتعش
محشرج مبجوح خافت . ازيك ياهانم . منظوية متكورة . مثققرة .
حزينة ازيك ياسي فتح الله . . الصمت لا يعرف الخفوت او الانطواء
حط . . شريط اللمبة يقطع . استاذنت الصديقة لتعد كوب الشاي ،
بقى الصمت . سطع نور اللمبة الباهت الخجول ، بقه في حجم حبة
عدس بقشرتها تجري كالمذعورة على الحائط ، شجيرات العاقول
الشوكية مسمرة على الجدران لقتل البق النهم . كان نعسانا على
مصطبة السبخاوى . تقدمت اليه . . سى فتح الله . وارب عينيهِ ،
كان عم السبخاوى قد استيقظ وتركه نائما . سى فتح الله . . صح
النوم دلقت على يديه من ابريق الفخار الاسمر ، غسل وجهه
بصاونة معطرة قدمتها اليه ، على كفها كوب الشاي ، تأمل جبهتها ،
نور اللمبة الباهت الخجول يسطع على جبهة هانم . ازيك ياهانم .
اكتشف ان بده ممسكة بيدها . فزع . كان بين اصابعه ثعبانا .
سحب يده على عجل سحبها وهو لا يدري حقيقة مشاعره . من دماغه
كان ينطلق حديثه قاسيا ينهى كل شيء . كل شيء يجب ان ينتهى .
السيرة لبانه بين افواه القرية . قسمة ونصيب . . من المنطقة المجهولة

هانم هي هي ، هانم الى جواره بنفسها بلا زيادة ولا نقصان . عرضت هانم بؤجة بها اشياء فتح الله ، ردها . هو ليس خسيسا . هانم آمنت ، انت صحيح لست خسيسا وانت ابن ناس . ماذا يصنع فتح الله في الكلمات . هو يقصد انه ليس خسيسا ليسترد اشياء خرجت من ذمته ، اما ان تخرج الكلمة من فمه لتكون حبل اتهام تسيء تخنق فهذا مالم يرده . كل شيء يتمرد على ارادة فتح الله حتى كلماته . انفجرت هانم باكية ، هو ابن ناس اما .. احس بحزن حقيقي . حزن من المنطقة المجهولة ومن دماغه معا . مثلما كانت خاتمه تقبله على جبهته قبلها على جبهتها ، بشكل خفي ، تقبيلها على الجبهة عمل مختلف تماما عما فعله رشاد . لهذا فتح الله يبيع لنفسه اتيانه . هو يتفرد بالجبهة . هانم .. عليك ان تدعى كل شيء للفد . في الفد يجد فتح الله راحته . وعدها ان يزورهم في البيت . كانت قد نقلت اليه خبر مرض امها .

- ٧ -

يبدأ بصداق في الرأس . همود في الركبتين . تهدل في الجسد كله . اسهال . قىء . بعد ثلاثة ايام ماتت الام . ماتت نرجس . لم يشترك فتح الله في السير في الجنازة .

في نفس اليوم ماتت امرأتان . مات ثلاثة رجال . في اليوم الثالث استقبلت افواه المقابر خمسة رجال . دفنوا - ايضا - على الساكت . امرأتان . عدد من الاطفال . ببطء تدريجي ثابت . تسدل الخوف . ملأ البلد كلها . خلت المصاطب ، قعدات المعسل ، حتى المساجد . تجمعات مختلصة مرعوبة تنهاس ، تتناقل آخر انباء المرض ، اى الموت . من اصيب بصداق فيه الشك والامل . الاسهال يقطع الشك باليقين . البحث عن الليمون شغل الناس . اشاعة ان البلح هو السبب . المرض الجديد معد يا اولاد . ثلاثة ايام ثم الموت . لا مريض واحد شفى ، البلد تدفن كل يوم . كل يوم موت ودفن وجنازات صامتة . الدفن لا يتوقف في كل بيت مريض او ميت او مرعوب . قش الرز ملأ الشوارع والمصاطب . على قش الارز يجلس المشيعون . المدرسة الالزامية ، ومكتب المحافظة على القرآن الكريم

انقلبا . سوق الاثنين ماعاد يقام . كل واحد انطوى على خوف عميق .
 خرف يخاف ان يهمس به لنفسه . لا أحد ابدا هاجمه المرض وشفى
 البلد انقسمت قسمة غريبة كما لم يحدث ابدا او كما هو حادث
 دائما . عيلة السوالم اقامت معسكرا وقائيا حول سراياتهم ومنازلهم
 احتمت داخل معسكرها . فكروا ان يقيموا سورا بين بيوتهم وباقي
 بيوت الفلاحين ، اى غريب عن العائلة محظور عليه الاقتراب من
 بيوتهم . أهالى البلد عليهم وحدهم ينصب غضب الله . العسائلة
 الغريبة الوافدة على البلد بيوتها منعزلة . الشغالة الذين يخدمونهم
 فى الفيظ والبيت حجزوهم داخل المعسكر . منعوهم من النزول الى
 ذوبهم . المسجد المشترك قاطعوه . جابر افندى احتجز السبخاوى
 وكلبه سبع الليل . مقابر البلد مفتوحة للاهالى وحدهم . المقابر
 ضاقت بالموتى من أهالى البلد . عبد الشاطر خيل اليه ان برأسه
 صداعا . حمل قاسه الى الفيظ . هو يعالج الامراض بالشغل .
 اربعون عاما ما اعترف بطبيب او مستشفى . الاعمار بيد الله . هو
 مشغول دائما فكيف يمرض . المرض رفاهية العاطلين اهل المصاطب .
 هو دائما وراءه شغل فى الفيظ . الارض يا اولاد دائما تحتاج الى
 اليد اللى تلعب فيها . ترفع الحجر من جانب عود القطن ، تحيطه
 بالتراب الناعم . الزرعة فى الفيظ كالطبخة لو تركت على السكاكين
 شاطت . عبد الشاطر عاد بفأسه . لم يصدق انه أصيب بأسهال .
 علامة لا تخطيء . عم الوهيدى الحريص الواعى الرزين جن . كل
 شيء يارب الا عبد الشاطر . لم ينبج سواه . هو كل شيء . من
 أجله كل شيء . ابيع البهائم بهيمة بهيمة ، الارض التى جمعتها شبرا
 شبرا . ابيعها ، اعود كما بدأت لا يهمنى ، يبقى عبد الشاطر ،
 سنخلق ارضا جديدة من تحت الارض ، سنملا الدنيا زرعا وقلعا
 وخيرا . عبد الشاطر ، عبد الشاطر ، حمل الرجال عبد الشاطر نزلوا
 به الى القصر العميق . انهال التراب . عائلة السوالم بحالها كان
 المرض لم يعرف بيوتهم . لا رجل لا امرأة لا طفل . الخالة هى التى
 افضت الى فتح الله ، يا أبنى البنت هانم سمعت ياولداه انها تعبانه .
 الحيرة عاودت فتح الله . امها ماتت ، العمدة حجز اخواتها .
 فتح الله حملته خطواته الى دار عم السبخاوى . تخطى العتبة فى
 خوف . دق صدره خبطات متلاحقة . دوار خفيف طاف بدماعه ولم

يلتفت اليه ، قابل عينيه صمت مقبض . كل شيء يراه لأول مرة .
 باب الدار . شرائع غليظة من افرع الشجر . تراب قديم يفتش كل
 ما امامه . الهباب طبقة سميكة هشة متراكمة على السقف . الدار ،
 برج حمام مهجور ، طافت بذهنه كلمات موال . حرمت يادار اخشى
 الزقاق عشتاك . هو لم يدخل هذه الدار منذ زمن خيل اليه انه عمر
 بقوله او ليلة . البلاص الذي كان دوما نظيفا ومروقا بنقى الشمس ،
 مبخرا باللبان المحروق ، الجوزة . هنا جالس رجال الليل اخذ منهم
 اعطاهم ، حدثهم ، حادثوه ، اتعبهم ابو دراع ، طوفه حملته الى الليل
 كان يكره عيلة السوالم ، كلنا نكرهم يافتح الله ، لكن جابر افندي
 هو المتوى ، آخر محاولة معه ، ابو دراع اقسم بالطلاق ، طول م ابن
 الكلب متحكم فينا م يعيش معنا كان يبكي كالحرسة . ياجماعة هم
 ابن الكلب ورائنا ورائنا في الفيظ ورائنا ، في الليل ورائنا ، انا ه اعدي
 الشرقية ، لكن من قتل فهم بن زينه لحساب العمدة . غفم الرجال
 حتى هانم لفت ودارت . كانت أحيانا تصمت . هل كانت تكذب وهي
 تشتم عيلة السوالم . طالت وقفته . نادى اسمها . هانم . هانم .
 لقى نظرة على القاعة الجوانية . دفع الباب . وقف في البحراية .
 زكمته رائحة الرطوبة والعممة تملآن اركان الحجر . زبل الراسب
 في حجر داخل المصطبة فوق حصيرة باهتة هانم منكورة . وجمعا
 للحائط اثنين حافت لا يصل الى ابعد من اذان الجدار وصل اليها
 صوت فتح الله . استدارت . رفعت عينيها اليه . فتح الله اربك
 كثر خيرك يافتح الله ، السيش والملح له حق . كانا كالأخوة . كيف
 تتحدث . بكت . فتح الله عليه أن يرجع ، فالروش المأمون معه .
 ليحمد فتح الله يستمتع بشبابه . الانتقام الذي عذب فتح الله
 ارتفع كله خالصا لهانم ، لكنه يحس أن دماغه هو الذي يدفعه
 خنقه الصدر ، شلل الجسم كله ، افتقدتهما إذ يتشاها هذه المر .
 تقدم اليها . حزين . حزين من أجل حالة هانم . جلس الى جوارها
 دق صدره . أمسك بيدها . اربك ياهانم . احساس قوي بالواجب
 يدفعه . من راسه تسقط تصرفاته . هذه هي هانم يافتح الله
 تمن لها الشفاء . لم يطرح على فكره مابعد الشفاء . شجر كم جلبانه
 بغاس قديسة جرد القراء . رش ترابا ناشفا . فتح دولابا داخل
 الحائط . سحب جلبابا نظيفا . اجلسها . اسند ظهرها الى صدره .

بكون ماء ، شطمة قماش بللها ، مسح وجهها ، يديها ، قدميها ، تخلص
عنها الجذباب الذي تلبسه ، لبسها الجلباب المغسول ، أعد لها كوب
شاي ، أعطاها حبة أسبرين ، عصر لها شقة ليمون في كوز ماء .
ارادت أن تقضى حاجتها ، أسندها الى كتفه ، بدد خجلها ، عيب
ياهانم ، السنا اخوات . داخل الدار في مربط قديم لمعة بيعت
قضت حاجتها . كنس لها المصطبة التي تشغل صحن الدار ، مصطبة
رجال الليل ، قعدات المسل والحشيش . فرش الحصر ، أجلسها
على المصطبة ، واربت هانم عينيها . الضوء يملأ الدار . يمامة تهدل
على السطح . صحوة تتمشى في اوصال هانم . حلم . اكدت انها
لن تموت . الموت لا يقدر ان يأخذها من جوار فتح الله . فتح الله
يعرف ان هانم هي ما يربطه بالبلد ، بلد السوالم . هل حقا كانت
هانم تكرههم . هل تعود للحيرة داخل فتح الله . هل تفر دماغه
منها . هل لحظة صحوها أرجعته الى حيرته والى الانقسام داخله .
احس فجأة بضيق لم يدر سببه . أدارت هانم عينيها . المت بكل
ما فعله فتح الله . نظرت الى جلبابها ، يديها ، عملت ذاكرتها ، أحست
بخجل حقيقي حين تذكرت خلفها جلبابها أمام فتح الله وقضاء حاجتها
سحبت عينيها بعيدا عن فتح الله مداراة لخجلها ، عادت تنظر اليه ،
امسكت بوهن بكفه ، ظلمت أن يجلسها ، في عينيها الدار نظيفة كأنها
في ليلة عرس . حاولت أن تقف . لم تستطع . جلست . أفدت بها
الدار بشدة . صوبت عينيها نحوه . لم تكن تعرف أنه يصبرها كل
هذا الحب . وفي المسألة الزمنية التي أحست فيها هانم بدبيب
النهاية . أحست بعثة ضبابية أن اكتشافها مع متأخر . كانت تتفتح
داخلها دلائل صدق حب فتح الله لها مع دلائل الاحساس المتسدى
بالنهاية . لم تستمتع لحظة واحدة حالمة باكتشافها أنه يحبها كل
هذا الحب . ياس أم بعدد خلايا جسدها « خلية خلية » ياس كأنه
العقوبة . عقوبة تكتشفها هي وتخضع مرثمة لها . أمل العجز عن
افصاحه ، أن تحيا لحظة واحدة مع اكتشافها بعيدا عن يقين الموت .
لا تملك التذرة من الحياة أن تسأل نفسها سبب عماها عن عاطفة
فتح الله . أم يجد حديد . كانت تعرف أنه حتما كان سيفعل ما فعل .

كانت تعرف كلماته قبل ان ينطقها . تصرفاته قبل ياتيها . لكنها
أبدا لم تكتشف قبلا ، ولا تكتشف الا في لحظة آفلة . احساس فوق
اليأس ، فوق الألم ، يفوق الحياة نفسها ، يعلو على الموت . المدة
على المصطبة . ظهرها الى الحائط . الى جوارها الرجل الذي احبها
تنظر اليه . ليس بعينيها ، فان عينيها قد كفتا عن وظيفة الابصار ،
تنظر اليه بخلايا جسدها كله مختبرقة الملابس والسر والفموض .
احساسها لم يعد يرسم في شكل معنى . لا تعبر عنه الكلمات .
المعنى والكلمات ينتسبان الى شاطئ تقلع عنه . احساسها رؤى تنفجر
داخلها . هي ذاتها غدت رؤية . احساسها قليفة حمراء غامقة .
تزداد غمقة حتى لتصل الى لون اسود . احساسها ، قليفة لحيتمها
الحياة بطولها ، سداها الموت بعمقه . حياة بلا نبض الحياة . موت
بلا همود الموت . حياة تموت . موت يحيا . في لحظة لقاء متوهجة
مكتومة معتمة ملعونة . اليأس لا يرسم معنى . يبرز شكل ارض
تسيخ تحت رجليها . الارض تنفتح . بئر تقع فيه بقدميها اولا .
تحاول قدماها ان تمسكا بأرض ، بتراب . الارض تغور . هي يشدها
البئر . يشدها البئر . انها داخل البئر .. داخله .. يشدها ..
يشدها .

يحاول فتح الله ان يمد يده ، يمسك شيئا لا يقبض عليه . الحياة
ليست وقفا على ارادتنا . تعاش مرة واحدة . اكتشاف لا يدربه الا
وهو يفقد هانم . على الخشبة تمدد الجسد . غسلته المفصلة .
وضعت القطن على المخارج . كlob صغير خافت الضوء تقدم النعش ،
النعش على كتف فتح الله . واحدة من مقابر الحريم ، انزلوها براسها ،
قالب من الطوب الاخضر تحت رأس الجسد المسجي . اهيل التراب .
فقيه ضرير جلس خلف القبر يردد كلمات كثيبة . لا وقت للحزن .
رجع المشيعون ليزيد عددهم عن اصابع اليدين . تخلف فتح الله .
وقف وحيدا . الكلوب يبتعد . على المقابر يزحف ظلام ثقيل .. امه
.. سيد ابو دراع .. عبد الشاطر .. اخيرا هانم .. الظلام ..
السكوت نواح خافت ياتيها من بعيد ، من داخل البلد . بلدة كثيبة ،
مقبضة ، ليس بها مايربطه اليها . يبرز وجه خالته تضيق في جهامته
ابتسامه يلتقطها فتح الله دائما . الاصابع الطويلة المعروقة . تحركت

قدماه . كان الطريق الثانى من داخل المقابر يقود الى جسر المصرف
 النظامى ، الجسر الذى ترقد البلد الموبوءة فى ظله . سارت القدمان .
 تيهة مشاعر تلفه . لا يعرف شيئا . لا يدري شيئا . لا يرغب فى
 شيء . لا يرغب عن شيء . كل شيء كأي شيء . ماتت هانم حقاً .
 هو يحبها الآن . ماعادت سدا فى وجهه . خالة انا هـ . هجـ . هـ .
 هجـ يا خالة . القدمان تخطوان . الكون كله ظلام وفراغ . تحت
 المقابر ظلام وفراغ . على سطح الارض ظلام وفراغ ، السماء ظلام
 وفراغ . وانتم يارجال الليل ، يا أصحاب ، قادم اليكم ، لم اقتل
 السيد ابو دراع صدقونى ، ردوا ، مدوا ايديكم عيناى توشك الا ترى
 موضع قدمى . . رصاصة واحدة تضىء الطريق .

كل شيء حقيقة

.. امام المربع الذى كونه التقاء نهاية بطن الجاموسة البلجة مع
نخذاها الايسر ويتدلى من وسطه الضرع ، جلست « نجية » على
قرحها .. مسحت داخل الطاجن بيدها اليمنى ونفخته .. بين ركبتيها
وصدرها وضعت .. ضغطت بركبتيها قليلا لتحكم تمكنها من وضع
الطاجن .. ضغط الطاجن بجداره المواجه لصدرها ، حلمتى نهديها
... أحست الدفء الخفيف فى جدار الطاجن .. سرت رعشة لم
تحسها فى بدنها كله .. تركزت ململمة فى حشو بطنها السفلى ..
ارتجافة واضحة فى الجزء الداخلى من رحمها .. وبلا تحديد
تعرضت « نجية » لتيه مشاعر وأرتعاشات واحساسات وضيق لم
تدر سببها .. لو انها حرة نفسها لقطعت مشوارا جرياعلى جسر التربة
.. اكففت ان نفخت واتبعت نفخها استغفار الله العظيم .. حزن
حزن امرأة اتت المحذور .. بأصابع يديها الاثنتين شدت براز
الجاموسة الاربعة كل على حدة ، برفق ، فى حركة حلب وهمية ..
الى أن حنت الجاموسة .. انتصبت البراز فى كف « نجية »
اسفنجية ، دافئة ، منتفخة باللبن .. عدلت « نجية » من وضع
اصابعها ، وبين السبابة والابهام ، ومن عند التقاء البر بالضرع ..
عكمته ، ونزات ضغطا ، فانثق سروب اللبن حارا مندفعا الى قاع
الطاجن محدثا طشبا يطفى الظلم .. خلا دماغ نجية وجسدها من أى شيء
حركة انتقال اللبن من ضرع الجاموسة الى الطاجن .. تحت سقف
الزريبة حوم عصفوران من أعشاش القش الكثيرة التى بنتها هذه
المخلوقات الدخيلة بين سقف عيدان الغاب .. اصطدم واحد من
العصفورين باللمبة المافورى فوقعت على الارض .. اظلمت زريبة
جابر افندى .. نهق حمار من طرف الزريبة .. رد عليه من طرف
العزبة حمار اخر .. قطع عجل بقر الحبل الذى يربطه الى المدود ..
تشم امه المربوطة الى جواره .. كانت عشارا .. لم يمنعه ذلك من
محاولة اعتلائها .. ابتعدت عنه بنصفها الخلفى نافرة .. تبعها ..

شدت البقرة رقبتها ، فانقطع الحبل الذي يمسكها الى المود ..
 داست فوق الجاموسة الكديش المروطة اتي جوارها .. كانت -
 بلا احلام - تجتر .. قطعت عملية الاجترار ووقفت .. في الظلام
 أحست « نجيه » صف البهائم قد انطلقت وانها موشكة ان تدوسها .
 رفعت الطاجن .. وقفت على حيلها .. لطم رأسها وطواط يحوم في
 سقف الزريبة .. حاولت ان تلمس طريقها بين الجاموس والبقر
 والحمير .. غارت قدمها في درقة جلة ساخنة .. أحست بحنق
 وضعف .. ارتسمت داخلها لعنة على البهائم وآبائها وعلى اصحابها
 وآبائهم .. لم يكن جابر افندي في ذهنها وهي تلعن اصحاب البهائم
 .. كلماتها المنطوقة كانت نداء مكررا على سيدتها الحاجة فطوم ..
 جاء حسان تسبقه دائرة ضوء ملقاة من بطارية .. دائرة الضوء
 تتحرك فوق الوحل والشرب ، وبولة حمار بالها في موضع حافر
 جاموسة غائر .. البولة صنعت بحيرة .. اعواد برسيم متناثرة ..
 عين حسان تسجل .. مع ان حسان بقده يسير في الظلام خلف دائرة
 الضوء فان « نجيه » راته في طول باب الزريبة ، اطول من صالح ،
 الرجل الذي خرج ذات صباح مع البهائم وعادت البهائم دون عودة
 صالح . تبينت نجيه بوضوح داخل رأسها اعلى صدر حسان تكشف
 عنه فتحة طوق جلابيته .. البريق في الظلام يخيف - لا نعرف
 لم - لكنها بحثت عنه بعينيها في وجه حسان .. أوقد حسان اللمة
 العافورى .. وضعها مكانها فوق رف الزريبة .. نادى صبا لربط
 البهائم .. انذار خارج الزريبة .. حسان الصعدي - حسب ماتناديه
 نجيه بصوتها - لم تألف منخاره بعد رائحة زرائب الفلاحين .. الزريبة
 برمتها في خياشيم « حسان » دكان عطارة .. في انف نجية تكاد
 تكون كل رائحة محددة ، بول الحمير له رائحة مالحة مقيئة ..
 الجاموس والبقر بوله مائع الرائحة ، تكاد لضيقها به ان تتحسس
 باسنانها .. كارهها . استجاب حسان لطلب « نجيه » .. أمسك
 برأس الجاموسة البلجة حتى تنتهي نجيه من حلبها .. الاشمئناط
 المرتسم على وجه حسان كان مناسبة لان تسأله نجيه عن عدد
 الذين قتلهم في الصعيد حسان فوضها ان تختار العدد الذي يروقها
 .. حسان لا يفرق بين أن تقتل مرة واحدة وان تقتل الف مرة ..
 حسان الواقف امام رأس الجاموسة .. على حدقتي عينيه ضوء
 اللمة العافورى الباهت الذي يشغل وسط الزريبة .. اركان

الزريبة الثمانية مطموسة تحت ظلام لا يوصله ضوء .. ظلال البهائم تقع مختلطة على أجسامها .. الصبي مازال يربط البهائم .. أسود قش غي اعشاش المصافير تتدلى من سقف الزريبة .. انفه يلتقط الروائح الفواحة يحاول ان يميز بين كل رائحة على حدة .. صوت شخب اللبن في الطاجن تتعوده اذناه .. همهمة نجية مصرة على ان تعرف العدد الحقيقي للناس الذين قتلهم .. مخيلة حسان هناك .. ينزل من مغارة في بطن الجبل .. فى كتفه البندقية الميزر .. يتطلع الى السماء .. يشاهد نجومات اربع .. الليل انتصف منذ وقت ليس باليسير .. هذه المغارة فريدة .. تقع فى منطقة .. تنكر كل من محافظتى اسيدط .. وسوهاج تبعيتها اليها .. ظلمة الصعيد ظلمة صافية ، ظلمة خالية من اللون الاسود ، ظلمة ظل الجبل يختلط والشمس وراءه ، بالسحاب .. لكن ناسه سود عجاف .. العيال كلهم عيانين .. انتهت نجيه من حلب الجاموسة البلجة .. سسار حسان امامها باللمبة .. نجيه تسأل ، حسان يرد ، انه سيفنى الليلة .. ازاء ما اخبرته به نجيه من انها ستحضر الفرح ، أحس حسان بالتزام الشهامة - فهما يعملان فى دار واحدة - ان يرعاها فوق السطح وهى مع بنات ونسوة العزبة اللائى يتفرجن على المغنين ، وان يصحبها عند عودتها بعد انتهاء الفرح .. نجيه تحاول ان تعرف من حسان الموال الذى سيفنيه .. حسان يرد بكلام لم تفهمه نجيه . حسان ليس محترف غناء مواويل .. سيفنى الموال الذى يخطر على باله .. انتهت نجيه من رص طواجن اللبن وغسل المواعين .. وقبل ان تنصرف سألت سيدتها الحاجة فطوم تستأذنها فى الانصراف .. الراجب الاخير على نجيه ان تؤنس سيدتها مع العيال حتى عودة جابر افندى من الجامع بعد صلاة العشاء .. زامت نجيه .. فى ذهنها ان جابر افندى ليس ممن يحرسون على الصلاة ، حسان موضوع حديث الحاجة وخادمتها . حكمت الحاجة ان حسان قاتل ، وانه قد قتل امه لانها تزوجت رجلا آخر بعد وفاة ابيه ، وانه قد هرب بعد جريمته . تعجب الحاجة من امر حسان ، فهو رجل طيب ، وأن حلال ولا يرفع عينه ابدا ، واصابعه مثل اصابعنا نحن .. نجيه استأذنت سيدتها فى تصحيح الحكاية ، فحسان قاتل حقا ، ولكنه لم يقتل امه بل قتل زوجته وقد ضبطها فى حضن واحد من اصحابه .. حسان قتل الزوجة ومازال ينتظر الفرصة حتى ينسى الناس

وينسل عائدا الى الصعيد لقتل العشيق ، وطلبت نجيه من سيدتها
الاثامنه ، فكل القتل يدون طبيين ابرياء .

جابر افندى ، شيخ العزبة الذى لايلبس طربوشا ، رجع من الجامع
فى رواية زوجته .. ومن مكان آخر فى زعم نجيه .. جابر افندى
له معلوماته الادارية التى تخالف معلومات حريمه ومعلومات خادمتيه ،
حسان مجرد ولد حرامى من الاشقياء ، وذات ليلة كان يسطو على
منزل رجل طبيب مستور .. الرجال الطبيون فى الصعيد قلائل ..
استيقظ صاحب الدار وضبط حسان يسحب البقرة .. حسان
قتل صاحب الدار .. لم يبق امامه الا أن يهرب من الصعيد كله ،
ويسبح فى وجه بحرى ، ويحتمى بأهل السطوة .. جابرافندى
هز رأسه ولكنه لم يخطب على صدره بطرف اصابعه المفردة .. الحاجة
فطوم بدا منها مايدل على عدم التصديق .. كادت تقص حكاية قتل
حسان لأمه .. اندهش جابر افندى من أن زوجته الحاجة لم تؤمن
على كلماته التى قالها وتلك التى لم يقلها .. مع أن ضوء الللمبة الغاز
نمرة عشرة لاساعد على ابراز ملامح الجالسين فى المندرة ، الا أن
الحاجة فطوم ، وكانت على خلاف مايشى به اسمها ، ذات ملاحه ،
تخلت تقاطع الوجه المندهش الغاضب ، وكما توقعت .. اسمعها
جابر افندى الحديث الذى نسبه الى نبي المسلمين عن نقص عقل
النساء وايمانهن .. امننت الحاجة فطوم .. حوقلت .. بسملت ..
صلت على من وضعت يدها على شبابه ، البنت نجية اعترضت على
سيدتها .. اتسمت بالسبت زينب الطاهرة أن حسان قتل زوجته ..
وترجعت بعندتها الى جابر افندى خاصة ، مؤكدة أن ليس اطيب من
النساء .. جالت بعينيها - فى حسد - على جدران المندرة .. مطلية
بالجير الابيض .. اجزاء من الطلاء سقطت عن طبقة الطين الاسود
.. صورة دياب بن غانم على فرسته البيضاء يطعن بحربة طويئة
الزناتى خليفة .. دارت نجيه مع الكنب الاسطامبولى .. عم الشحات
خفير الحكومة ،لقى بندقيته الى جواره .. ينفخ النار فى الطاجن
يسوى عليها براد الشاى .. الدموع تملأ عيني الشحات من الدخان
وتنزل الى شربه الكثر المهوش .. جابر افندى بين شففته غابة
الجوزة .. جابر افندى يقطع بأسنانه قطعة خشيش يناولها الى عم
الشحات .. شيخ العزبة يتهم الخفير بانقطاع النفس .. فجأة

تذكر نجيه الفرح وحسان .. تهب خارجة الى الشارع متجاهلة
نداء جابر افندى .. مهممة في داخلها بما يمكن ان يصاغ في
كلمات .. حرام عليكم ياناس يا كفرة يا اولاد ستين كلب .. سيبنى
اشوف نفسى .

- ٢ -

القت نجيه حزمة برسيم الى الارانب داخل جحرها تحت المصطبة
التي تشغل اكثر من نصف الحجرة والتي تتخذها منامة تفرش فوقها
الحصير .. اقلت نجيه حزمة برسيم ثانية الى الخروف الصغير
المربوط في البحراية .. نظرت الى مشنة العيش .. افتقدت رغيين
وحزمة بصل وقطعة جبن قريش .. عرفت ان اسم النبی حارسها
ابنتها هانم قد تناولت عشاءها .. غسلت نجيه رجليها ووجهها
وترينت وارتمت فستانها الكستور المشجر الذى زفت فيه الى
صالح .. رغم ان الجلاية او الفستان متلازمة مع صالح ، بحكم
انه هو الذى اشتراها . وبحكم انها قد لبستها لأول مرة من اجل
صالح ، فان نجيه لم تذكر صالح ، ولم يرسم في مخيلتها ، بل ان
نجيه لم تربط بلدهنها بين ابنتها تلك التى تأكل أرزا ولبنا مع الملائكة ،
وبين صالح ، وهو الرجل الذى وضع داخل نجيه بذرة هذه
الابنة ، ان « صالح » خلافا لكل معلوماته رغم انها من اخص خصائصه
.. وضع بذرة هانم ظهيرة يوم صائف قضى ليلته بعيدا عن نجيه في
غيط القطن .. ليلة قضاها ساهرا تحت الساقية كى يقوم بتوزيع ما تدفعه
الساقية من ماء على خطوط ارض القطن ولو سهى او نام وغرق القطن
وذبل فعقوبته يعرفها جيدا .. علقه من جابر افندى او اتهم بسرقة
المحراث الخشب .. صالح جاء ظهرا الى حجرة نجيه .. انسل
والقى بنفسه على المصطبة .. دخلت نجيه .. جلاية صالح متكورة
تحت جسده .. رجلاه مكشوفتان .. سيقان لا تأخذ اونها من الالوان
المعروفة .. اسود ، ازرق ، اصفر ، ابيض مدلوقة تحت جلد صالح
.. شعر جاف خشن .. باطن قدمه لا تستطيع ان تحدد ما اذا كانت
مفسولة أو مغطاة بطبقة من الطين .. على ان هذا الطين - على فرض
وجوده - لم يعد طينا .. انه طين تألف مع الجسد الحى .. أخذ
منه واعطاه .. خضع الجسد والطين في القدم لمتطلبات المشى والجرى

على الشوك والتراب ساخنا يحرق في الظهيرة وبارداً يرجف في الشتاء .. فى بطن القدم شقوق .. فى الشق الواحد تخفى أصبع طفل .. تأملت نجيه الجسد ، لا تحس أنه مكدود .. لا تسمع الشخير العالى الصادر عن جهاز تنفسى مختنق . فى أذن نجيه طنين .. طنين لا علاقة له بالشخير .. طنين حقيقى بلا رمز او دلالة .. جسد صالح تعرض لعملية هز قاسية عنيفة .. نجيه تسأله ، اذا كان يريد ان يشرب ؟ كذاك تطلب منه ان يغطى نفسه .. قصارى مافعله صالح انه اعطى ظهره للجدار .. كانت الحصيرة مثقوبة فى الموضع الذى التقت فوقه نجيه وفريستها .. ظهر نجيه لم يحس بالثقب .. لالتشابه بين ظهرها رقدم صالح .. الثقب قد نعمت ورقت وتأكلت حوافيه . لان الحصيرة واونها معا قد خضعا لعوامل الزمن .. عينا نجيه المتجهتان الى السقف لم تسجلا طبقة الهباب والسخام وهى طبقة حقيقية من الهباب .. طبقه من الهباب بلا رمز او دلالة .. شبشب نجيه يطرق بصوت مسموع على ارض الحارة .. نجيه فى طريقهما الى الفرح .. فوق السطح الذى يطل على الوسعاية داخل العزبة وبين النسوة والبنات ، كمنت نجية .. ضوء الكلوبات التى تنبر الوسعاية سقط على وجوه النسوان فوق السطح ، الكحل الاسود فى العيون وعلى الرموش ، لطشات اللون الاحمر على الخدود بانث .. فى الوسعاية ذاتها تحلق الرجال والاولاد جلوسا على الارض فى ايديهم شماريخ وخيزانات من سوق الخميس فى السنبلادين عصى من فروع شجر وزارة الاوقاف الذى يحيط بالعزبة والفيضان .. بندقية الحكومة معلقة على كتف الخفير المرمى .. الخفير يهش بخيزانة طويلة خطفها من ولد غنام .. الخفير يطلب من الرجال بأسمائهم ان يسكتوا ومن الاولاد منسويين الى آبائهم ، اما الاولاد الذين مات عنهم آباؤهم وهم صفار فينسبهم خفير الحكومة الى امهاتهم .

— البت هانم بنت نجيه .

وتبادلت النسوة فوق السطح اماكنهن الى ان جلست كل منهن امام الوجه الذى تبحث عنه ويبحث عنها .. التقت عينا نجيه بعيني حسان .. ابتسمت نجية ولم يتسم حسان .. وغنى لطفى الميهي من رجال العزبة موالا عن شجرة السنط التى رواها بدفع عينه فى بؤونة .. حبيب المبنى الذى يجوب قرى وعزب وكفور العب .. يصنع النسوة بصوته الخشن قنى موالا عن البنت بيضاء اللون التى ترمي

البل فى الحنه .. طلب الرجال حسان .. دون قصد ، وقعت عينا
حسان على نجيه وهو يغنى :

- ملا .. ملئ قريته

ميه تصافى نيل

- ملئ وساها يا ليل

فى الشرع تلزم مين

- تلزم جدع جد

يسوى من الرجال الفين

.. انتفضت مهتاجة الاجساد النحيلة المرهقة بحصوات الرمل ،
متعددة الاحجام والتراكيب ، داخل قنوات الكلى ، وجع الجنب الذى
يتحاشون ذكر اسمه صراحة ويسمونه المخسوف ، وقف الرجال
كلهم منتشين فى فرح غامر لم تفرزه بذاتها هذه الاجساد ، فالمثانة
ملينة ببول مدمم ، وارتفعت العصي والنباييت ونطقست الالسن
المكتومة ، التى لا تتحرك الا لبلع الريق ، طالبة من الصعيدي مزيدا
من المواويل ، ومحبيبة الرجال الظنابا ، وهاتفة باسم الليل والعين
والحب والسجن والفقر والجذعان .. وانطلقت رصاصة شسنت
ببارودها المحترق ، ظلما فوق العيب كله .

- ٣ -

مع الحوارى الضيقة المظلمة والتى يسقفها التقاء الحطب على جدران
صفى الدور فيها .. مع نباح الكلاب على كل شبح .. مع نهيق
حمارين فى طرفى العزبة .. تنتقل خطوات حسان .. فى هودة ..
فى جيب صدريته مدية داخل جراب جلد .. فى يده عصا غليظة
يتحسس بها السكة .. عصاة الصعيدي ذراعه .. فى راسه صورة
أنته .. صغيرة ، لم تعد سنتين .. مرت أعوام عديدة ولم تكبر
صورة الصغرة عن آخر مرة رآها ، بطنها عريان حتى الصدر ..
منتفخ قليلا .. ارجلها رفيعة وجهها متسخ .. على عينها ذباب كثير
.. الصورة ثالثة داخل دماغ حسان .. ستظل الصورة كما هى
باقية .. رقدماه تحملانه الى كل مكان ، الا حيث توجد صغيرته .
داس حسان على عصاه فوق الارض .. اذناه . والصورة تتحرك
ثابتة داخل رأسه . ثلثقطان كلمات نجيه .. نجيه مع انها انتشت مع

المنتشين ، حارت مع كلمات الموال .. لم تتوقعه .. ليس فيه كلمة الحب .. نجيه ترفض موضوع الموال .. ترفض ان يكون من مجرد ملء قربة بالمياه اغنية يرددها الرجال فى الافراح .. حسان هو الآخر لأول مرة يفحص كلمات مواله .. لكنه موال عزيز لديه .. طالما رددته لنفسه .. فى الظلام احست نجيه ان « حسان » يتسم .. لم تفهم لم .. لقد دمعت عيناه ذات مرة وهو يدندن لنفسه ، داخل وعيه ولاوعيه جميعا ، بكلمات الموال ، ذات ليلة كان مخلفا وراءه مدينة الاسماعيلية فى طريقه الى الزقازيق .. كانت ليلة مظلمة ، قضى أولها مشيا ثم استراح الى مقهى .. واحدة من المقاهى ، عشنش سفيج او غاب تقام على جانب الطريق .. اصحابها رجال واحيانا نساء لهم عين تعرف الغريب ولا تنكره .. تقدم له كوب الشاي الساخن .. كرسى المعسل ولا تتردد عن دس حبه « افيون » ودائما كلمة طيبة تفوق كل المخاوف .. صوت عم الشحات الخفير يستفسر من القادمون .. اخذ سيجارة من حسان .. نهر نجيه بنت الكلب .. كيف لا ترد على جابر افندى حضرة العمدة وهو يناديها .. لم تكتمل فى فهم عم الشحات كلمات نجيه الساخرة وهى تحدثه عن الشر الذى حصل لها من عم الشحات ومن حضرة العمدة .. ونفعت اللعينة كلمة حضرة العمدة بما زاد من ارتباطك عم الشحات داخل معطفه الذى كان اصفر والذى ارتداه لأول مرة ذات يوم من ربع قرن مضى .. كان عهدة واحد من جنود الحلفاء واشتره الرجل قبل ان يدخل خدمة الحكومة من سوق السنبلاوين .. باربعة برايز استرد منها اجرة الاتوبيس ولم يخلعه منذ ذلك التاريخ .. وهو تاريخ حقسا لا مجازا ، لان عم الشحات يؤرخ بهذه المناسبة ، فانه احمد انجيه قبل ان يشتري المعطف بستتين بل ان الانجليز حاربوا الالمان سنى شراء هذا المعطف .. ومعطف عم الشحات وان انتسب تاريخيا الى اصل اجنبى الا انه الآن واحد من مواطنى العزبة .. مواطن مستقل ، حتى ان عم الشحات لو خله لهب المعطف فى الصباح الباكر مفادرا داره الى مسجد القرية يدخل دورة المياه يقضى حاجته ويتوضأ ويصلى ركعتين ويلقى على رجال العزبة فى طريقه الى المسجد ، ومنه الى داره تحية الاسلام ، ويرد التحية ، حسب الاصول ، فلو القاها واحد من الشغالة لرددها « وعليكم السلام والرحمة » ولو القاها واحد من اوساط سكان العزبة يرددها « وعليكم السلام ورحمة الله » ولو

انقاها عين من اعيان العزبة .. واعيانها قليلون ، لرد معطف عم الشحات التحية « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » وسارع المعطف بتقبيل اليد .. بل ان المعطف يحمل فأسه ، اعنى فأس عم الشحات ، الى غيط جابر افندى او غيط الوسيه في العزب المجاورة .. وان معطفنا .. وقد صار عم الشحات واحدا من الساهرين على امن المواطنين .. يحمل البندقية ، ويكوع على مصطبة بعينها ، ويعترض القادمين ، ولا ينسى ان يطلب سيجارة من المعارف ، ويقول نفس الكلمات :

— ازاي يابت يانجيه يابت ستين كلب جابر افندى شيخ العزبة ينده عليكى المشية وماتردش ؟.

على ان الفعل الذى كان سيقدم عليه المعطف مخالفا فى ذلك عم الشحات .. انه ، لو انه بمفرده ، ماتردد عن صفع نجيه على وجهها جزاء سخريتها من جابر افندى فى شخصه هو .

امام حجرة نجيه وقف حسان متهايا للانصراف .. عزمت نجيه بكوب شاي .. تناول حسان اربع بيضات مسلوقة برقيقين .. نجيه تنفخ فى النار تعد الشاي .. حسان طلب عود حطب من النار بشعل به سيجارة .. امسك نجيه من ذراعها .. نذت عنها صرخة مفرغة من كل البنيان النفسى والعصبى للصرخة .. ومع ان حسان لم يفهم المسألة على هذا النحو ، فلم يفت الصعيدى ابن السكك التى لا تنتهى نوع الصرخة التى اطلقتها نجيه ، حسان امسك ذراعها الشائر بسراه ، تاوهت نجيه ، اساء حسان تفسير الصوت ، كانت الالهة الما جسد يامن اليد الخشنة ، له تكن اشارة ان تقدم بالطريق مفتوح على مايرام .. فى الوقت الذى كان حسان على المصطبة جسدا خالصا كانت نجيه غير خالصة لجسدها ، كان دماغها يعمل ، فى مخيلتها صورة صالح زوجها ، فى فكرها عتاب ليس كاملا لصالح ، بل انها تذكرت مقام سيدى الشيخ صلاح الدين ، الذى قيد بغير حبال ، الرجال الذين حاولوا ذات ليلة ان يسرقوا زرع البصل من الغيط اقام فيه مقام سيدى الشيخ .. وقد ابقاهم بسره البائع مربوطين الى الارض حتى جاء فى الصباح صاحب الغيط ، وهو الذى يقوم على خدمه المقام ، وتضرع الى الشيخ صلاح الدين ان يصفح عنهم .. واذا يقن حسان انه موشك ان يصل الى هدفه .. طرقت اذنيه معا تهديدات نجيه مقسمة بحياة سيدتها زينب الطاهرة انها ستصوت

وتلم أهل الحارة وأهل العزبة جميعا إذا لم يتركها .. تحرك شيء
فى جسد حسان يدفع كفيه أن يطبقا على رقبة نجيه ، شاهد لسانها
يتدلى مع فقاعات اللعاب من فمها .. ونفذت من أذنه .. مرة ثانية
.. كلمات نجية القاطعة طالبة أن يسيبها .. لم تكن نجيه ترفض
لقاء حسان . بل أن تحقيق هذا الشيء بذاته كان ملء دماغها ، وملء
كل خلايا جسدها ، منذ دخل الزريبة ، ووقف أمام الجاموسة
الملجة ، حتى هذه اللحظة ، وهى تقسم بحياة سيدتها زينب الطاهرة
.. وفى الوقت الذى كانت نجيه فيه راضية بفكرها وبجسدها ،
راضية بصونها وبفعلها ، كانت عينها تسجلان تهديم الرجل الذى
أمامها ، بمتعة حسية ترتد بأصولها الى الكهف الاول .. بشكل
غامض ، ورغم شدة الرفض ، كان دماغ حسان بما يصل هذا
الدماغ من مشاهدات تنقلها اليه العين ، وعلى وجه الدقة : من خيوط
من موقف نجيه تنقلها عين حسان الى دماغه ، ومن أصوات ، أو من
خيوط من صوت نجية تنقلها اذن حسان الى دماغه .. من خيوط
من فعل نجية وصوتها .. كان حسان يحدد أن رفض نجية ليس
قاطعا ، لذلك : فجهاذه ظل مستمرا ، رغم كل التهديدات ، وطالت
المناهدة حتى أنهك جسد حسان ، وعجز دماغه عن تسجيل خط
الرضى وسط حزمة الرفض .. تقدم الجسد يائسا بلا تهدم يعارك
نجية ، سجلت نجية التغير الذى طرأ على الموقف دون إدراك ماهية
التغير .. المرأة التى كانت راضية بجسدها وبخيالها ، افتقدت الرجل
يتهدم أمامها ، وواجهت جسد حسان وذراعيه .. حسان صغار
جسدا اعمى يعارك لا يعرف ، يعارك من أو يعارك لماذا ؟ وفقدت نجية
المتعة ، وتوحد توزعها الى رفض لا تكاد تعرف رفض ماذا ، لكنه
رفض المطلوب فى لحظتها هذه ، وتصدى جسدها بأدواته .. جسد
لا يثق فى قدرته الذاتية ، لكنه بدنيا مصمم دائما على أن يحمى نفسه
.. لقط حسان الاستغاثة قبل أن تنطلق ، وفك ذراعيه .. سنك
طريقه فى الحارة المظلمة الباردة لاهثا .. لم يتعد كثيرا قبل أن يلتفت
على صوت أنثوى رائق خنون .. كانت نجية تمد يدها .
- السكينة ياسى حسان وقعت منك ع المصطبة .

فى الصباح الباكر .. امام رأس الجاموسة الكديش ، وقف حسان
 بهرش جلدها فى المنطقة المحصورة بين قرنها وجنب رأسها ، والتي
 لا تطولها الجاموسة مهما حاولت حكها بظلف رجلها الخلفية ...
 الجاموسة ماقية برأسها على حافة المدود ، تاركة نجية تنقل اللبن من
 الضرع الى الطاجن ، بنظرة جانبية رصدت نجية حسان .. رغم ان
 اذن حسان لم يتغير وضعهما ، فقد رأتها نجية متهدلتين كأذن حمار
 بعد يوم كامل فى نقل الوحل من الزريبة الى الفيط .. نجية لم تتأمل
 داخلها .. لا تعرف لم رفضت يقينا ، فى ذهنها فكرة مبهمة عن ان
 ذلك حرام .. حرام لماذا لا تعرف .. كانت خالية من الزهو ، رغم
 اذن الحمار المتهدلتين ، لم تعد ماحدث انتصارا لها ، أو لفكرة رفض
 الحرام ، على ان ذلك لايعنى انها آسفة ، وحين سألت حسان عما إذا
 كان مازال زعلانا .. لم تكن تقصد اكثر من فتح باب للحدث معه ..
 حسان اذنه تسمع كلمات نجية بموقف من لم يحدد موقفه بعد مما
 حدث .. العمل يجمعه بنجيه ، ومجرد لقاءهما أو استماعه لها لايفسر
 بأكثر من ذلك .. وهو يستمع عينه تدور داخل الزريبة .. الزريبة
 واسعة .. ضوء الصباح اثارها .. بقرة تبول .. السمائل يسفط
 من بين اعلى رجلي البقرة الخلفتين .. النيل تندفع مباحه من قناتل
 اسنا .. فى المذارة ، بين محافظتى اسيرط وسوهاج ، حيث الاحتماء
 من رجال الشيطنة .. سبحان الله .. كان اسمهم البوليس .. الرجال
 هناك داخل المفارة .. يدخلون سمجاير الحشميش .. برعى بفجئهم
 بحكمة توصل اليها عن وضع المرأة .. الى جانب كل رجل بشقيقه
 .. المدفع الرشاش داخل المفارة .. برعى يقسم بالحرام من ذراعه
 .. برعى له زوجة لكنه لا يحلف بالطلاق .. تمارغ دق قلب حسان
 امام الجاموسة الكديش فى زريبة جابر الهندى .. ابن برعى ..
 اعاد الى سجن اسيرط .. ام مازال يشغل بين مغارات الجبل مفارة ،
 مفارة .. برعى يقص المارك التي تخاضها المطايريد .. برعى صاحب
 قلب لا يخاف .. السجن اكثر راحة وامنا من نهار الصعيد .. كانت
 احلام الرجال عجيبة .. فى النهار يحلمون بالقبض عليهم .. البنادق

تقف لا تطلق الرصاص .. فى أحلامهم دائما مكسورون امام رجال الامن .. اتفقتا ذات مرة طوال حديث ليلة .. أنهم فى أحلامهم اضعف منهم فى واقعهم .. فى الأحلام دائما يسحبهم رجال الامن مربوطين بالحبال .. نهارهم مقبض مخيف بالأحلام .. الليل هم أبناؤه .. رجال الليل .. حكمة برعى .. ليلة .. أقسم بالحرام .. المرأة لا تستطيع ان تفتصب الرجل .. الرجل وحده فى قدرته ان يفتصب المرأة .. حكمة ربنا استنتجها برعى وامن عليها رجال المغارة .. لكن « حسان » لم يستطع مع ذلك .. حسان لم يعد رجلا .. نزل من الجبل .. نجية لا ترضى هذا التوزع فى حسان .. هى لا تصل الى انه توزع فى حسان .. تفسره على انه زهل مما حدث .. هى تخلط بين عودة التوزع داخلها نفسها بين الرضى والرفض ، وبين رغبتها بحديثها فى مصالحة حسان .. عودة نجية الى موقف الوسط بلا شك فى نفس الوقت خطوة تستلزم مصالحة « حسان » وان نك خطوة لم تحسم المشكلة التى بدا انها شاغل من نوع جديد بطرق حياة نجية ..

كان طلب نجية الى ستها الحاجة فطوم ، ان يصحبها حسان بالطحين الى القرية المجاورة ، عملا داخل المشكلة ، بل انه تعامل مع المشكلة وجها لوجه .. حسان يسوق حمارا يحمل زكية أرز .. نجية وراء حمار ثان يحمل زكية قمح ، فى طريقهما الى مكنة الطحين الحديث بينهما حديث بين اصدقاء .. لم يعودا مجرد رجل وامرأة جمعتهم ظروف الخدمة فى منزل سيد واحد .. فى حاضر نجية ليس حسان الصعدي .. ليس واحدا من الرجال العديدين الذين يلتقطهم جابر افندى من الطريق ، يقدم لهم الرغيف وقطعة الجبن وباكوا المعسل او السجارة .. واخيرا الحماية .. اصبح .. واصبح هنا فعلا كابلا .. اصبح حسان كائنا محددا بذاته داخل معارف نجية .. كان ماحدث بالامس لم يكن فشلا لحسان او انتصارا لنجيه ، وهو كذلك ليس العكس .. ان صفتى الفشل والانتصار لاموقع لهما هنا .. نجية تحاول صادقة ان تجذب حسان الى المنطقة التى وصلت اليها .. ترضى الان ان تنعس فى حراسته .. لا تخاف من سكينه يضعها حسان على رقبتها .. ذلك لا يمنع انها سمته قبلا ، قاتل قتلى جهلا به ، وهى تسمية الآن قاتل قتلى مزاحا ودردشة ، وسعسميه فى الغد قاتل قتلى دون ان تدري آنذاك حقيقة

مشاعرها .. حسان يتلقى صدق مشاعر نجيه .. لا يحمل لها داخله كرها أو حبا .. امرأة فيها لون نساء وجه بحرى وملاحتهن وعادة لا يرفضن .. وهما يسقطان الى المغارة اذ لم يكن لها باب بل ثقب على سطح الجبل ، برعى حدره من نساء الصعيد .. الاوجب الحرص من نساء وجه بحرى .. هذا لايعنى أن « حسان » فى داخل سد صفيق تقف بينه وبين نجيه .. هو محق لو انكر مثل هذا الحاجز اساسا .. هو رجل مسالم ، لا يقوى أن يواجه التهودد الانسانى بالجمود ، او باللامبالاه ، او بالحدر .. سرعان ما ضحك كطفل ، وبانت اسنانه البيض وسط وجهه المستدير الفائق السمرة .. اشعل سيجارة .. عبر عن شفقة حقيقية ازاء المجهود البدنى الذى تبذله نجية فى منزل جابر افندى .. نجيه ترى انها القسمة والنصيب ولقمة العيش .. القسمة والنصيب .. هما رب حسان .. لكن لقمة العيش لا تملكه .. نجيه تعارض مؤكدة احسان ان لقمة العيش تملكنا جميعا .. عندما يعاود حسان اصراره على ان لقمة العيش لا تملكه تفاجئه نجية ، انه لو كان يملك فى الصعيد ارضا وبهائم مثل جابر افندى ، ماساح فى بلاد الله الواسعة .. حسان لا يغضب ، يقتصر على انه لا يرضى ان يكون مثل جابر افندى .

عندما عادا وقد بيضا الارز وطحنا القمح ، كانا قد اتفقا على الزواج .. نحن لا نملك مضبطة الحديث بين حسان ونجية ، الثابت لدينا ان الحاجة فطوم - كمادتها - اندهشت من اقتراح نجيه ان يصحبها حسان الى مكنة الطحين ، وانها - الحاجة - قد افضت الى زوجها بمخاوفها التى تراها برهانا على انها امرأة حريصة واعية .. جابر افندى - كمادته - سخر من مخاوف زوجته ، ولم تمنعه السخرية - كالمعادة ايضا - من ان يأخذ برايتها ويبحث عن آخر يصحب نجيه ، وووجه فعلا بعدم وجود من يصحب خادمته وهى تطحن الطحين .. فالغيظ الزم له الخفراء . وتمادى فى اظهار سلطته الادارية فى مواجهة زوجته باصراره على ان يكون حسان مع نجيه ، وفى السر اتصل ، عن طريق تليفون الحكومة .. بعد القرية المجاورة ، بصاحب مكنة الطحين .. نقلت نجيه الى حسان مخاوف سيدتها . رد الصعيدى الطيب انه عندما يريد أن يسرق فان يركب حمارا ليسرقه بل سيركب جابر افندى نفسه ..

الثابت لدينا كذلك ، ان حسان ، رغم احاديث المغارة ، وقد احس

التودد فى كلمات نجيه ورغبتها الصادقة ان تنقله الى المنطقة التى وصلت اليها فى علاقتها داخليا بحسان ، لم يكن لديه بقلبه الطبيب ان يواجه صدق نجيه بالحدس او الجمود .. حسان سأل نجيه عن أصلها ، وفصلها ، وماذا اوقعها فى دار هذا الرجل .. نجية بلا اصل وبلا فصل وبلا حكاية ، شبت فى دار جابر أفندى .. أمها كانت قبلها خادمة فى دار جابر أفندى .. لم تر لها ابا .. ولولا ان اسمه منقوش على ختمها ما عرفت اسمه .. لم تحدثها المرحومة أمها عن إبيها .. المعلومة الوحيدة الاكيدة ان أباه لم يكن من رجال هذه العزبة .. أمها نفسها ، والله وحده هو العالم ، لم تكن من نساء العزبة .. الناس فى العزبة لا ينسبونها الى اسم إبيها او حتى الى اسم أمها .. نجية التى تخدم فى منزل جابر أفندى .. نجية زوجة صالح الذى يخدم جابر أفندى .. ارتسمت فى مخيلة حسان ارض الصعيد .. رملية صفراء .. قيطان العدى بنواره ... بنواره الزاهى .. البطن الصغيرة العارية المنتفخة .. الأرجل الرفيعة .. حادثة الامس نقلت نجيه الى جوار حسان .. رقم ان الحادثة لم تحقق قنيتها ، ولم تحقق الا ذاتها ، ولم تخط خطوة واحدة ابعد من كونها قد حدثت .. حسان انتقل الى جوار نجيه بشئ مختلف عن حادث الامس ، بل .. رقم حادثة الامس .

واذ علمت الحاجة فطوم بموضوع الزواج - كعادتها - اندهشت ، ورفضت على اساس ان الرفض يعطيها صفة الحدس والحرص ، فضلا على ان حسان فى زعمها قاتل .. جابر أفندى هز رأسه ، فحسان ، فى زعمه ، مستعملا لغة عمد بلدنا ، مجرد متشدد ، حرامى ، لم يجد من يرد .. على ان حسان اماننا ، وعلى قناب الارقول قننى موالا لم تفهمه نجيه . ، او لم تحاول ان تفهمه .. والموال نفسه ، اثار دموع حسان ذات ليلة .. حسان لم يخترع الموال ، ولذلك فالوال لا يفسر حسان ولا يفسر الزواج ولا يفسر الموال اى حدث تاريخى .

- ٥ -

.. فى اوراق مركز شرطة السنبلابين ، او محافظة الدقهلية ، لا تنسب العزبة الى جابر أفندى .. جابر أفندى نفسه ليس أفنديا

.. إلا أن هذه الأوراق لاتلزمنا .. ولن نعرف العزبة إلا بعزبة جابر
افندى .. رغم الطاقة وبر الجمال التى تمتلئ يا فوخه .
.. على طريق الجازورين ، الذى يربط عزبة جابر افندى بأكبر
قرية مجاورة ، والذى قطعه حسان ونجيه فى الصباح ذهابا الى
مكنة الطحين وعودة منها .. وبين الاشجار العالية فى ظلمة لم تصبح
بعد مخيفة .. بين الفيضان الخالية من البهائم والكلاب ورجال العزبة
واولادها ونسوانها .. على طريق الجازورين .. سار حسان ونجيه
واطفى المغنى .. شبيب نجيه يمتص تراب السكة صوت طرقتيه
الذى كان حريا بها ان تسرى فى الليل الى مسافات بعيدة .
لطفى يدندن داخل نفسه .. حسان لا يعرف تحديدا ماذا هو
فاعل .. كان قد اتفق مع نجيه على الزواج .. الزواج فى ذهنه لم
يرتبط بماذون وبشهود وبعقد وان تكون نجيه زوجته .. عندما
بدات اولى الخطوات لم يمانع فى تنفيذها ، وان لم يكن قد تصورها
ولو أن نجيه طلبت منه أن يصحبها الى الماذون لرفض ، لكنه لم يمانع
فى الذهاب الى الماذون لانه تنفيذ لاتفاق ارتبط به .. ذلك لا يعنى
أن حسان بلا خيال .. ففي دماغه دائما صورة ليل الصعيد مقمرا ،
تهز رعوس النخيل فيه نسمات منحدره من الجبل ، وصوصوة
كروان ، وان لم يعرف اسمه ، وقد ينزل الى مدينة أسيوط فى
وضح النهار . لا لانه لا يتصور ان المخبرين قد يلاحقونه ، ولكن
لان الرجال فى الجبل اختاروه ان ينزل المدينة لزوم العمل .
.. فى اول الطريق احست نجيه ، وهى لا تكف عن الكلام ،
أسف ، ليس لان بختها قد خاب مع زوجها صالح ، بالتحديد لان
اللون الاحمر على خديها من ورق التفتة ، غطاه ظلام الليل مع الكحل
الاسود الذى أطبقت بجفنى عينيها على مروده .. خفف من أسف
وحزن نجيه ، انها هناك فى حجرة الماذون ، وقد وضع اللبنة نمره
عشرة امامه على الطرايزة ، وسألها عن اسمها ، وطلب منها ترديد
الكلمات التى تعرفها ، وطلب منها الختم .. هناك ستبدى حياة
شديدا ، وتندو لكل العيون حمرة الخدين وسواد العيون وخصلة
الشعر التى مسحبتها من تحت المنديل المطرز بالترتر الزجاجى ،
وشغلت جزءا من جبهتها ونزات على اذنها .. دلالة انها ليست بنتا
صغيرة .. بل امرأة تعرف ان تنتف بتراب الفرن المحترق شعيرات

الجهة والوجه والساقين .. وعموما تعسرف كل افانين المرأة ..
 .. امام الماذون .. كان لطفى هو المتحدث .. ففي داخل لطفى
 وهو معنى المزبة ، انه ثمة علاقة قد لا تكون واضحة ولكنها موجودة ،
 بين مهنته كرجل يغنى فى الافراح وبين مهنة الماذون كرجل لولاه ماتقوم
 هذه الافراح .. هذه العلاقة ليست وحدها مايدفع لطفى على أن
 يتقدم الى الماذون ليساومه على اجر عقد القران .. رباط قوى
 او انقل صداقة بين لطفى وحسان .. لطفى الغلبان .. هو الرجل
 الوحيد فى المزبة الذى لا يحمل احتراما حقيقيا لجابر افندى ،
 وبسميه بينه وبين حسان .. البغل ، ويقسم بالطلاق ، وهو لم
 يتزوج بعد ، ان لا فرق بين جابر افندى وبين الحمار غير ان الحقيقة
 وراء ذلك ، ان لطفى لاينسى ان جابر افندى طلب منه ان يشتري
 قنسا ويستغل شغلة يأكل منها عيشا بدل الكلام الفارغ الذى لايفيد ،
 وهدده مرة بعمل محضر تشرد .

.. كما توقعت نجيه تماما كل شيء حدث .. حجرة الماذون مطلية
 بالجير الذى كان ابيض وصار اسود واصفر من الدخان .. النقوش
 على الجدران .. سفينة كبيرة .. مقام كبير .. الماذون حج الى بيت
 الله .. قطع الجير التى تساقطت من طلاء الجدران شكلت هى الاخرى
 نقوشا اكثر افصاحا عن نفسها .. اللبنة نمره عشرة .. الطرابيزة ..
 ابن الماذون حضر ليكون الشاهد الثانى .. الماذون لم يكن يقصد
 سؤاله بذاته حين سال نجيه عن سننها .. شهقت نجيه لانهما
 تستكثر ان تكون صغيرة الى الدرجة التى لا يفتن فيها الماذون الى
 باوغها سن الشرع .. لان هذا الماذون بالذات سبق أن عقد زواجها
 على صالح .. مرت بيدها على خصلة الشعر المسحوبة من وسط
 منبت راسها وافضت الى الماذون بما ظنته واحدا من معلوماته الاكيدة
 .. سيدها الشيخ سبق ان زوجها من صالح .. ترك الماذون الريشة
 .. عاتبها على انها لم تخبره من الاول ولم تقدم له قسيمة الطلاق ..
 الماذون لم يصدق ان صالحا لم يطلقها .. صالح منذ ثلاث سنوات
 سحب بهائم جابر افندى مع باقى الشفالة وعادت البهائم والشفالة
 ولم يعد صالح .. انتظرتة ولم يعد .. نجيه كادت ان تخصص جزءا
 من الجلسة للبكاء .. نظرة الى حسان والى المناسبة منعته .. كلمات
 الماذون قاطعة فى عدم جواز اتمام العقد الا بعد استخراج قسيمة

طلاق من المحكمة .. اضاف الماذون ان ذلك الزواج لو كان تم لكان زنا لا زواجا .

.. حسان لم يفهم المسألة تماما .. كاد أن يلوم الماذون ، لولا ان قاعدة منعه ، أن هذه هي مهنة الماذون ، وهو أخبر بشئون مهنته .. نجيه أنكرت موقف الماذون .. امرأة صادفتها في صحن الطبخ حبة كوسة مرة .. لا تستغرب أن تكون هناك حبة كوسة مرة .. تعرف أنها تستطيع أن تفرز هذه الحبة المرة قبل أن تضيفها الى الطبخ .. تقابلها الحبة المرة فتتكر وجودها .. بالنسبة للماذون نفسه ، فلم تقطع بجديته في الامتناع عن عقد الزواج ، وعندها يقين أنه لو قبض أكثر أو طلب منه جابر افندى لسيتم الزواج .. تعرف ان الماذون يقينا يحتفظ في مخه بحل ما لكنه لا يبيده للفقراء .. بعيدا في أعماقها هي ، كانت المنطقة بين هذا الزواج والزنا غير بيئة الحدود .. الزواج يسبقه كتب كتاب ، وهامى تود أن تكتب الكتاب .. كلما ارتفعت من داخل أعماقها اشتبهت بالحدود حتى تصل الى أن ذلك ممنوع ، ولكنه ليس مستحيلا ، ولو حضر جابر افندى فاعقد حتما سيعقد .

.. في طريق العودة لم يصرح لطفى لصديقه ولابنة عزبته أن ذلك فلا حرام مالم يحضر صالح ويطلق نجيه .. لكن ابن صالح .. حرام أن بقة نجيه بلا زواج .. بقاؤها بلا زواج وهي شابة سيدفعها الى الوقوع في المحذور .. لطفى كان صاحب فكرة عقد القران عند ماذون القرية المجاورة .. فالسيئات التي يتحملها أهل العزبة .. يدفنون موتاهم في مقابر القرية .. يشترون السكر والجاز والزيت والشاي والمسل من دكاكين القرية .. يعقدون زواجهم ويفضونه عند ماذونها .. هذه السيئات افسحت أن يقترح لطفى عقد القران ، في الليلة التالية ، عند ماذون قرية أخرى يعرفها ، وغنى فيها ليال بضولها .. المطلوب فقط انكار سبق زواج نجيه .. طلب من نجيه ألا تضع الاحمر والاسود ، وان ترفع المقصوص من فوق جبهتها ، حتى يكون زواجا من اول وجديد .

.. لان الزواج لم يتم بعد ، فقد أوصل حسان وصديقه .. نجيه ، الى دارها واتجها الى دار لطفى .. دخنا المسل والحشيش دندنا مع رجال القعدة .. أنشد لطفى بالقاء عاد منغم .. رده معه ووراء رجال القعدة .

أنا زارع شطين باميه
عند الساقية البحرية
كان عندي حمامه عرجه
نعدت من العسكريه ..

.. الرجال ينفجرون ضاحكين .. لطفى عنده خزين من المواويل
الحمراء .. يحفظ كثيرا من النكات والنوادر والحواديت ، وليس
هناك من يغلبه اذا دخل معه فى قافية .. وفوق ذلك عنده كثير من
الكلام الهلس .

.. فى الليلة التالية تم عقد زواج حسان ونجيه .. دس حسان
صورة عقد الزواج فى جيب صدرته مع نصف قرش حشيش ..
لطفى كان قد اقترح ان يقيم لصديقه .. ليلة عرس ، يفنى فيها
حتى الصباح .. يدعو اليها زملاءه من مغبى القرى المجاورة .. تدور
انجوزه على الرجال .. يحرقون المعسل والحشيش .. يسهلون ..
لطفى وان بك حسان قريبا ، لا يراه اقل من اى واحد من اهل العزبة
الخرقان الذين يؤنس ليااليهم .. نجية وحسان اعترضا على اقتراح
لطفى .. خبط حسان على كتفى لطفى ، مقدرا فيه الرجولة
والشهامه .. مترحزا قليلا عن فكرته من ان الرجال فى الصعيد ،
اما وجه بحرى فحمر شغل .

الظلمة والسكون فى السماء وفوق العزبة .. المدقات التى تصل
انعزبة بما حولها من غيطان وقرى وكفور لا يتعرفها الا ابناء العزبة ..
معطف عم الشحات من فوق مصطبه فى اول العزبة .. اعترض
القادمين .. نجية قدمت وجبة عشاء خفيفة لزوجها وصديقه .. اُرز
ونيض مسلوقة محمر فى الزيت .. احتفظت بذكر البط وحلة المكرونة
حتى تخلو مع حسان .. اللعبة العافورى التى اسهمت شعلتها فى
صنع طبقة الهباب فى سقف الحجرة ، اتخذت مكانها تحت المصطبة
.. لمبة جاز نمرة خمسة تضىء الحجرة .. هانم مزاحة بعيدا عن
المصطبة .. نجية فرحة مبتهجة .. قدمت اكواب الشاي .. مال
لطفى على اذن حسان .. ضحك لطفى وهو يستأذن من نجيه فى ان
يصحب حسان ليدخنا معا كرسى معسل .. عرفت نجيه ان «لطفى»
سيقدم تحيته الى صديقه لا اقل من نصف قرش حشيش غير قمحات
الافيون ، نبوت نجية على حسان ان يعود سريعا .. هى تخاف
الوحدة .. اخرجت نجيه حلة المكرونة فوقها ذكر البط استعدادا
لتسخينها فور عودة حسان .. اخرجت ورقة التفطة الحمراء ،

دعكت بها خديها .. المرود دبسة داخل زجاجة الكحل .. اطبقت جفنيها .. سحبت المرود مارا بالرموش .. ادمعت عينها .. تطلعت الى قطعة المرأة .. دخلت مناخيرها رائحة زبل الارانب من الحجر تحت المصطبة .. قررت ان تتخلص من الخروف الصغير المربوط فى البحراية بان تنقله مع بهائم جابر افندى .. سمعت طرقا على الباب .. انتفضت مسروعة ثلثت .. حسان لم يكن قد عاد بعد .. وقفت امام الباب .. الحارة فيها سكون .. دور الفلاحين مغلقة .. خافت على حسان من كلب اسود عضاض ينام دائما فى اول الحارة .. الجاز فى اللمة الزجاجية قد انتصف .. همت ان تقف امام الباب لتعرب لحسان عن زعلها لتأخره ، وكذلك عن اعزازها اى حياء .. اكتشفت فجأة انها وحسان غريبان .. انهما معا قطعنا من شجرة .. لامت لطفى ان حجز حسان كل هذه المدة الطويلة .. الا يعرف لطفى ان حسان قد تزوج وانه اصبح زوجا وان له امرأة وان ليس من حقه ان يتصرف فى قته على وهواه .. همت ان تخطف نفسها الى دار لطفى .. ليس عيبا لو فعلت ، فحسان زوجها ومن حقها ان تسأل عليه ، وان تقلق لغيابه ، بل وان تحاسبه .. نباح كلاب داخل العزبة فوق الاسطح وفى الحارات وحول العزبة .. حمار ينهق بعيدا فى طرف العزبة الثانى .. عم الشحات اخذته سنة من النوم .. عم الشحات لا يفرق بين السنة من النوم وبين الغفيط .. المعطف او البلطو او السكو يؤدى واجبه التاريخى حول جسم عم الشحات .. يعترض القادمين ويطلب سيجارة من المعارف .. الحاجة فطوم تنقلب على جنبها الايمن ، جابر افندى خارج الدار .. هو فى قعدة يفك عن نفسه .. جابر افندى نفسه انتهى من تدخين المعسل مع الحشيش فى طريق عودته خرج على المسجد بين ان يصلى او يقضى ضرورة .. على ميضة الجامع جلس يتقيا ديكا وصحن فتة من داخل كرشه .. نجية زاد ميلها الى ان تنده حسان من منزل لطفى .. تذرعت بالصبر .. بالحكمة التى توصى الانسان بطول البال .. جلست على المصطبة نستمع ، بصبر فارغ ، الى كلاب تنبح والى اقدام تدق على ارض الحارة .

حسان خرج من عند لطفى بعد أن حرقا معا لا اقل من عشرين كرسي معسل فى وسطه تعميرات الحشيش .. لطفى دس فى يده قمحة افيون لزوم الليلة .. على باب الدار حضن حسان صديقه لطفى وقبله .. حسان اتخذ طريقه مصمما دون ان يعرف او يدري لم .. بعيدا .. بعيدا عن عزبة جابر افندى ..

طرح المجد

... سطح المسجد الحجري ممتد امام عينيه امتارا بدت له
فسيحة .. هبات ريح موحية تتسلل الى الجسد النحيل ، تهزه
فى غفلة من صاحبه .. وتلطم شعيرات الشارب الاصفر الناعم ..
فتلات جلبابه البفته المنحولة ، لستر العورة .. عورة الجسد المبطوط ..
بلا اكتاف تتناسب وطوله .. رائحة المساء الرطب تملأ خياشيمه ..
جبهته الكنزة فوق عينيه الثقبين تتنافر بشدة مع قدميه الطويلتين
فى خف شقافى الجلد والنعل وبلا رباط .. يدور فى خطو زمنى
مستعرضا سطح المسجد .. ومظلا على القرية .. ذبيحته الليلة
تحديدا .. تلتقط اذناه الحركة الخشنة الصاعدة من دورة مياه
المسجد حيث يتراقد اولاد الفلاحين امام الميضة ، للاغتسال وتبادل
الاخبار واتفاقات العمل والشتائم والسب والاستهزاء بكل الذى لاقوه
فى يوم بدأ منذ فجر بغيد ..
... نهاره هو لم ينته بعد .. مغربه تمسك بشمسه خيوط -
كشاربه - صفراء تختفى وراء سحابات شتوية داكنة ..
... قالت له بتوفز : استرح .. الايام - تقصد الليالى - كثيرة
آتية ..

... من بين جفنيه بيضاء الجلد ، مصفرة ، انطلق سهمان من
بصر .. تقلبان سقف الحجرة بضوء اللبة الجاز نمرة خمسة ،
وبالصور القديمة المستقرة وراء خلايا المخ وداخلها .. أعواد الغاب
المصفرة والسودة ، المتساندة على فروع خشب قديمة ، والنائمة ،
خليفة البال ، لا تحمل ذكرى واحدة لايام عديدة قضتها على شاطئ
الترعة ، خضراء ، مونقة ، متفصدة بالحيوية والنماء ، تمانين
أوراقها مع الريح وتستقبل ضوء القمر ، وتنفو مع ليل القسرية
الموحش العارى الكثيب ، فوقها - فوق الاوراق الغضة - تصنع
نقط الندى الصافية البلورية الماسية مع شعاعات شمس صباح باكر
طفلى برىء .. يجمعها بحرص دينى ، حفيد خفيف مرح حافى القدمين

يمسك فى ايمان مطلق وثيق ، بصر جده عجوز ، تتربع عودته فى قاعة رطبه مظلمة ، تكافح باصرار ، الا تنقل ضوء عينها الى عكاز توت .. تتلمس به ، لا ببصيرتها ، موقع قدميها اللتين يجب ان تدبا دائما ..

... فتيلة اللبنة تسحب بقايا الجاز وقد احمر جزء من طرفها ..
ايدانا ان الجاز - ولا غيره مصدر للضوء داخل حجرات البناء الضريحي التي بلا عدد - موشك على النفاد .. وان الفتيلة ، موشكة ان تعطي من ذات نفسها ، وان الظلام القدرى موشك ان ينهال « .. بدماعه ، انستق » من باب الاوضه ، كما يحرص على تسمية البناء المربع المسقوف ، الذى يضمهما سويا ، والتي تصر الجاموسة ، ليست تصر .. بالتحديد لا تستطيع الا ان تسميه .. بحكم ورائات فجرية التاريخ .. قاعة .. لله وحده كل ما يبدله من عذاب محاولة تعليم الجاموسة .. كيف ترمع .. تقتحم رأسه .. وسط زحمة افكار ملتبهه محاولة عد حجرات السراية .. تهب ظلمة على رأسه تطمس كل شيء .. ستائر خيوط العنكبوت الكثيفة . اسلم نفسه الى ياس جديد .. الحجرات بلا عدد ، لكنها كتل ظلامية عنكبوتية موحشة .. البناء كله فى سبات تاريخي يبدو بلا نهاية .. حجرة واحدة فى ركن منها حصير قديم .. فى ركن ثان صفيحة دقيقتى تمشش اسفلها كائنات سوسية . مشنة عيش .. زبر احمر جاء مع الجاموسة ليلة دخلتها .. عريانة الجسد ممددة الى جواره . على ان دماغه ، بحكم دوامات التراب السبخية ، ألتى تلفه عاصفة ، يقيم السراية الغافية من تصورات خارج احجار الجدران المهرثة .. السقف .. اعواد الغاب الناشفة المتعامدة مع عروق الخشب السنطى .. يراها الواحا لمساء سماوية الطلاء الزيتى مزدانة .. وفى صحوه ضمير طارئة .. يسمع نفسه .. تلك كانت ايام .. كانت الدنيا .. دنبا .. لم يعيشها كما يعيش الرجل مع امراته .. فى لقاء لحمى متعاشق صميم .. انتقلت الايام .. اليه .. عبر رؤى واحلام وتكشفات صوفية قاتلة .. عبر احاديث عجائز الفلاحين .. عبر احجار السراية القائمة لاتزال .. لكنهم .. الملاعين الفلاحين يربطون حديثهم عن السراية بالعفاريث .. يؤكدون كاذبين كعادتهم انها سكن السراية .. وانهم شاهدها وسمعوها داخل السراية .
... ذراعه واهنة ، ممتدة ، او ملقاة .. تحت رأسها .. لم يشعر

بالتمثيل يسرى فى اعصاب الدراع .

احس بذراع ملقاة .. محصورة ومحاصرة بين راسها وبين المخدة .
كان قد اصر على ان يكون فى جهاز الدخلة شرط اساسى ، لم يستطع
اصهاره من الفلاحين .. ان يفهموه . عرضوا شراء حمل صوف
للغطاء بدل اللحاف ، عددوا اسبابا بدت لهم .. وحدهم .. معقولة
.. فى ذهنه .. ماذا يكون الفرق بينه وبين اصهاره الفلاحين اذا لم يكن
قطاؤه لحافا .. فى سريره انه لا فائدة من تعداد مزايا اللحاف ..
المسألة انهم لم يدخلوا لحافا ، بيوتهم ، وعلى العروسة ان تفهم ،
او على الجاموسة ان تتعلم كيف ترمح .. عاش اجدادها خدما
واقبعا فى سراى اجداده .. هذه المرة واحدة من الفلاحين تدخل
السراية زوجة لواحد من سلالة المفتش .. ماكان يجب ان يحدث
ماحدث .. ماكان يجب ان تنزل الى بيوت الفلاحين لتأخذ منها لك
حرمة .. لا بهم ان تكون فقيرا .. اصلك هو الاساس .. أنت ابن
اصول .. وهل ضاعت الاصول فى هذا الزمن الملعون . ملعون ابوه
رجب العجوز .. ردد امامك يوما . اصلك .. وقتك .. الحقيقة
اننى لم افهمه .. لم افهم ماكان يقصده .. غلفها الملعون الخبيث
بكلمات الرحمة .. على ابيك وعلى جدك الكبير .. مسلاعين هؤلاء
الفلاحون الخبيثاء .. اصلك وقتك ..

حكمة جبانة اطلقها فلاح بهيم لا اصل له ..

.. الجاموسة تسحب ساقها .. بحذر محسوب .. هزتها اولا ،
تريد أن تحدد مدى التمسك بها .. حركتها .. ببطء انسل ساقها
من بين ساقيه .. سقطت ساقه على الحصيرة .. ما ألمته ساقه قدر
ماغشيته رهبة توقع الخطوة التالية .. فى راسه حطت كل الحجرات
المهجورة المظلمة العنكبوتية - استرح .. الايام - تقصد الليالى -
آتية .. كثيرة ..

.. اللمة الجاز شدت عينيه .. زجاجتها قرينة .. هنا اضاءت
الكلوبات يوما لا بد .. راسه داخلها يعمل .. يحاول ان يتبين السبور
المختلفة الايحاء ، داخل صوتها .. استرح .. ماذا تريد هذه الجاموسة
.. اندار راقدا على ظهره .. بدماقه وحده يحس جسدها الى جواره
.. جسد جنى خرافى .. يخترق قوالب الجدران الحجرية .. ينعنق
خارج بنايات السراية .. ينتشر فى الفضاء الليلى الغامض لحظات
آلاف السنين .. الفيضان الواسعة التى لا تبلغ العين مداها .. ترقد

فى احضانها القنوات والجسور وعلى حوافها اشجار الجميز ونباتات
الحلفاء المدبية والتجيل البساطى ..

.. لكن هذا الجسد بذاته اعتلاه يوما .. متى .. لسكان ذلك
احاديث اخرى كالتى يرددها عجائز الفلاحين حين تجمعهم المصاطب
ومدارات السواقى ومقاعد الطنابير وتراكيب الشواذيف .. كان جدك
الكبير مفتشا .. رجب العجوز نفسه .. عن ابيه عن جدته يحدث ..
كانت ركوبته حصانا ابيض كالبراق .. يشن .. يرن .. لجسامه
تفطيه قطع الفضة التى لا تصدا .. ركابه فضة صادقة .. الحصان
يقوده عبدان اسودان فى لون الغراب .. الطريق مبسوط واسع ..
وراء المفتش يرمح خفراء التفتيش .. عبيد .. فلاحون .. الموكب
دائما .. كعرس سماوى .. الشمس ذاتها كلوب يتقدم الموكب ..
امام السراية .. يمسك العبدان بالحصان .. يسرع ثالث كاسرا ظهره
ليصنع من جسمه سلعا بين ظهر الحصان والارض .. عبد آخر يظم
القدم من الركاب ..

... رجب العجوز يضحك مما حدث لجده .. يطلق آهة طويلة
.. مبهمة ..

— كانت ايام ياسى توفيق .. لكن بالذمة المحمدية .. كان جدى
يستاهل .. حد ياكل الفول .. عليقة التيران .. لكن اقول لك ياسى
توفيق يمكن كان جعان .. قول يا حسن الختام .. الف لك سيجارة
معلش .. اصلها سجائر فلاحين ..

.. جد رجب العجوز .. صدر اليه الامر ذات يوم من المفتش
نفسه .. ان يفادر البلاد .. بلاد التفتيش العشرة ..

— هو والجاموسة والعيال ويتنبه على العمد ومأمور المركز .
— العفو ياسعادة المفتش .. ما عندوش جاموسة ..

— هو .. ومرائه ..

— الرحمة .. يامفتش .

ذلك كان الجسم القروى الدائم الضالة .. منتصب باستحالة
وصعوبة ضيق نفس .. رجلاه الاماميتان .. ذراعه .. قوسان
مرتجفان بالتسبيح والضراعة .. بينهما وجهه الادمى .. شعيرات
الشارب الاربعة الكثيفة المعفرة من الف سنة . تسد مدخلى منخاريه
وتنزل على فمه .. دغل صغير يطل من خلفه وجه انسان .. رجب
انكلاف ..

- الرحمة .. يامفتش ..

الجلابية العبك مربوطة عند الوسط ، بحبل تيل مهترى ..
اللون نازل اغشى رمادى .. الرقعات تبقع الجلابية .. تحدد معالمها
خيوط غليظة بارزة .. اللون الازرق الذى كان للجلابية ، محقه تناوب
دورات فلكية .. لكن اللون الازرق هو الاخر يقاوم عوامل الفناء ..
لا شيء يقبل ان ينتهى مختارا .. اللون الازرق بين ثنيتى خياطات
الجلابية .. رجب الجدد نفسه لا يذكره .. فقط عندما يفرد ثنيتى
الخطاطة ، لينة قط القمل الابيض الرمادى الفاتح كحب السمسم ..
الضوء الضبابى الذى يكافح اليه الزرقاء على انساني عينيه بالكاد
يسمح لرجب ان يذكر اللون الازرق الذى كان لجلابيه يوم اشتراه
جاهزا من سوق الثلاثاء ..

- ايه ... ده ..

- ده رجب .. باسعادة المفتش ..

- ابوه انا رجب الكلاف .. ياسى المفتش ..

- اسكت .. فلاح .. خرسيس .. هاتوا الطبلية ..

- الرحمة .. يامفتش ..

الساقان الاصفران الرفيعان الاسودان .. تتخفى جلدتهما تحت
طبقة من القشف الابيض الباهت .. تغطيهما مسامير سننط سوداء
جافة ، شعر الساقين .. ارتعشتا فى ذعر .. الرأس الادمية ملفونة
- كالتيمية - داخل منديل محلاوى باهت ، ارتعشت .. العينان
اللتان تفلت منهما القملة السمسمية .. بين ثنيتى خياطة الجلابيات
الازرق ، دارتا بحجرة مكتب المفتش واسمة كالجرن .. حيطان
ماساء .. تصاور معلقة على الجدران .. اللون الاصفر بؤطرها ،
ذهب لا بد .. كراسى مرصوفة .. زغب كثيف فى لون البلع الرامخ
يفطيه .. قطيفة لا بد .. ناظر التفتيش نفسه واقف زنهـار ..
الباشكاتب الهائل المقام يدخل منحنيا .. رجب اجال عينيه .. غلب
العمش .. البصر داخلهما .. المفتش هالة من النور .. لم يحاول
رجب ان يتبين المفتش .. يسمع صوته .. ليس من اللائق ان يراه
بالعين .. يرى بالعقل وحده .. المفتش شيء ابيض فى ابيض ..
اسقط رجب بصره على قدميه هو ، دوار خفيف ألم بدماعه .. ربك
قادر على كل شيء .. قدماه متسمرتان على الارض .. ليس على
الارض .. تفوصان داخل الشيء الذى يطفى ارضية المكتب .. شيء

طرى ساخن قليلا .. رجب لم يحس الطراوة والدفع بأعصاب باطن قدميه .. بطن قدميه ترقد فى شقوقها سيور من طين ناشف ، انقل اليه بالورائة من جلدود لا يذكرهم .. بعينيه المبهشتين أحس الدفع الناعم والطراوة ، ما اسم هذا الشيء الذى يفرش ارضية مكتب المفتش .. العلم بحرة واسع يارجب .. يموت الانسان لا يتعلم كل شيء ..

— هاتوا الطيئة .. تأديب له وعبرة لغيره من الكلايين .

ماذا تفعل بارجب .. لم يفكر حتى في ان يتطلع الى السماء ..
 ملعون حفاااا الفول الذي اقتطعته من عليقة الثور .. الشيطان شاطر
 .. لكل ذنب عقوبة ..

شيخ غفر التفتيش بجلاله سحب رجب .. امام السراية ..
فلاحون .. غفراء .. عبيد .. كلافون .. سسياس .. خيـل ..
.. صعايدة .. الى جوار رجب نصبوا الواح خشب سمكة .. حبال
.. كنانية بيضاء .. واحد من العبيد تقدم بالشاكوش والمسامر ..
.. العيون كلها تطلع .. رجب ملق بصره الى اسفل .. تصعد الى
عيشية صورة الثراب المخضل برش الماء .. ثملة حمراء صغيرة تجر
شيئا ابيض في قدر حجمها مرتين .. تدخل داخل تجويف بطن
قامه اليمنى .. يرفع عينيه فجأة .. قد يكون المفنـش .. هبط ..
- استرح .. الابام .. تقصد اللبالي .. كثيرة .. آتية ..

.. براحة كفه - خروجاً من لحظة انتظار مطوطة كخلة لا تبلم
العين آخرها .. يمر بيده على صدرها .. تقف على نهداها .. بنام على
جنبه .. يحاول أن يتحكم في تصوراتهِ .. أن ينسى ماذا حدث
للنبا .. المنونة .. ترقد الى جواره ، كأنها ليست زوجته على سنة
الله ورسوله .. واجبا عليه أن يأتيها .. جبهته ملتصقة .. بترقبه
يرصدها . يحاول أن يفسر كل حركة من حركات الجسد الخرافى
الذى يلبد هو الى جواره .. كأن جسدها قد تحول الى سراية مغلقة
الفتحات .. بلف حولها فار ميصّة وبدور .. ضمها اليه .. انتظر
أن تفعل شيئاً .. أن تزيج يده .. أن تنفخ بنفاذ صبر أن تطلق
كالنار . بكلماتها الغريبة .. انتظر أن تسمعها تعيد : استرح .. الايام
.. تقصد اللسانى .. كثيرة آتية .. لو أنها فعلت لاعطاعا ظهره وامسلم
بنفسه الى رقاد .. لم تفعل .. كان قد ايقظها .. التفتت اليه ..
شمتها اليها .. انطلق ذهنه .. محاولاً أن يفسر التفسير فى سلوكها ..

احس جسديا .. عريانا ساخنا .. يضغط انفاسه .. ملعونة كاهلها ..
.. هذه الجاموسة .. تريد ان تقضى وطرها .. عليه ان يقول لا ..
هذه لحظته هو .. لن يخضع .. من حق الرجل ان يكون رجلا ولو
لحظة واحدة في حياته .. ان يقول لا .. الملعونة تريد ان تفرس ..
ان تنهش .. جاموسة كاهلها الفلاحين .

- الف لك سيجارة ياسى توفيق .. ماتعيش الهم .. خير ربنا
كثير .

- السراية دى ياسى توفيق .. ياما شافت عز .. لكن الدوام
لله ..

- يا اولاد الحرام .. منضحكوش عليه .. داسى توفيق .. ابن
ناس .. لكن انام .. كان جده البعيد يقول للشيء كن فيكون ..
.. هي تجذبه من تهويماته .. تحتضنه .. كف يدها الخشنة تمر
على قناة ظهره .. بالاطراف الداخلية لاصابعها الخنصر والبنصر
والوسطى والسبابة .. تضغط .. الظلام يزحف داخل الحجرة ..
سحلية تمر على الجدار حول اللبنة .. الفئران حركتها لا تتوقف على
السقف .. على الجدران .. فوق الحصرة نفسها .. يحس ان شفتي
زوجته مزومتان .. حركة دخول الهواء وخروجه من فتحتي انفه ،
مسموعة : شيء كالفحيح .. هو الان سيد .. سيد بارادته او برغمه
لا يهم .. عليه الا يعطى .. الا يعطى .. الا يتخلى عن عجزه .. عن
قوته .. هذه لحظته هو .. ان تزحف الدنيا على ظهرها اليه .. ان
تطلبه .. ان يتمنع .. ماذا كان يفعل الجد فى الليل .. لكن انت الذى
بدات ياتوفيق .. معها الحق .. اى حق .. الحق الوحيد ان تحرق
هذه الملعونة .. ان تشعل فى جسدها حريقا .. حق للمرأة ..
ياتوفيق .. ان تحصل دائما على رجل .. كلام فارغ .. رجل من
وامها .. انظروا نور المصباح فى طرقة كقصعة البرغوث .. لا شيء
يهوت فى صمت ..

- توفيق .. توفيق .. هتنام ..

لم يدر بم يجب ، سينام ام لا .. هؤلاء الفلاحون الخبيث .. لهم
حديثهم .. بلونون الكلام . تساله ام تستحبه هذه الجاموسة ..
تقذف بسؤال لا جواب عليه توازيا - معا - كالخطين .. ركر ذهذه
يهدف ان يتخلى عن السرحان .. انه هو السيد .. عليه ان يفعل
مايفعله واحد من سلالة المفتش .. كان الجد رجلا لابد .. يطلب الجارة

بالاسم .. الجوارى والحريم تملأ السراية . الجسد كان يقوم بما
تفرضه عليه فحوالته . ثم ينفض يده من المهمة بعد مشواره .. عليك
باتوفيق ان تحبى امجاد السلالة .. ياجدى .. سليك توفيق ..
بلا تفتيش .. بلا نظار وقف .. بلا عمد .. بلا خفراء .. بلا عبيد ..
بحبى امجادك .. ضبط نفسه ايضا ، وهو يهوم بعيدا عن الرسالة ..
احتضنها بلا سابق انذار .. ضفط بلراعيه .. انتبه الى ان دماغه
وحده هو الذى يعمل .. جسده فى واد آخر .. جسده لم يساير
فكره .. بالتجديد فكره وحده قرر الاستجابة .. فكره وحده
تزحزح عن موقف الامتناع .. او ان جسد توفيق اكثر دراية بتوفيق
منه هو ذاته .. تحددت معركة توفيق .. زحزحة جسده الى الموقف
الجديد .. احياء امجاد المفتش .. خيل اليه ان جسده لسكان
آخر .. تشمم شعرها كلازمة من لزوميات الرسالة .. آثار جاز ..
كاد فكره ان ينضم الى جسده وبرفضها .. سبق ان امرها الا
تستعمل الحاز فى تمشيط شعرها .. كنساء الفلاحين .. زوجة
توفيق سليل المفتش ليست كنساء الفلاحين وان انتسبت اليهم امرها
الى الله .. تجمع بيض الفراخ لشراء حق فازلين بقرشين من بائع
طراف .. اتعد بأنفه عن شعرها .. دك أنفه فى جسدها .. تملكته
الرغبة ان يسير مع الجاموسة كما كان الجد يسير مع المهرة الى نهاية
المشوار .. الاذرع الاربعة تضم الخطين المتوازيين .. لكن شيئا
فيه هو بقى هامدا .. رافضا .. منزويا .. منكشأ على ذكريات
رملبة بفوص فيها لا يبدو منه شيء .. الضراعة اليه منه هو ومنها
هى .. الذكريات الرملية الناعمة المنهالة لا تنزاح .. الذى لا يسمى
راقد تحت الرمال التاريخية .. العرق الساخن ينسال باردا ..
يختلط مع الصلوات المرقوعة لاله لا يستجيب .. اصم .. أخرس ..
اكتع .. طفل .. لا مبال لا يدرى ما يدور حوله .. لا يدرى دوره
التاريخى الخالد .. يلفه شيء كالشلل .. لكنه ليس شللا .. توفيق
متوسلا .. متسولا .. هذه لحظتك يا صاحب المقام .. لا تخذل توفيق ..
توفيق سليل المفتش .. المفتش الذى حكم عشرة بلاد .. أرضها
وعمدها وناسها .. لا يمر فوق غيطانها غراب دون أذن منه .. فى
سرايته الحريم والعبيد .. يطرد ويجلد ويكوى النار .. يا صاحب
المقام لا يهم ان كانت المركوبة جاموسة وليست مهرة .. يا صاحب
المقام انك آخر الامر منى .. منى انا .. فيك مافى من امجاد ..

انك انت انا .. لا تغرب انت الآخر ..

.. ازاحته بنفاد صبر .. عاود محاولة احتضانها .. بيدها مرت
على موضع الضرع منه لو انه بقرة .. صفحة ملساء مستوية من غير
سوء .. تعمدت أن تضبطه دون كلام .. اشهدته على نفسه .. أعطته
ظهرها .. حاول أن يستديرها .. ثقيلة .. ثابتة .. كالشمس على
حافة يوم .. ينقضي ..
- نظيرة .. نظيرة ..

- استرح .. الايام .. تقصد الليالى .. آتية كثيرة ..
.. شدها بعنف .. قارزا اظافره الصفراء الجافة في جلدها ..
امسكت بيده .. بيده الثانية فصل جديدة من شعرها وشدها ..
بقرف امسكت بيده الثانية .. احسها قوية .. القى برأسه على
جسدها وبأسنانه كز .. انتصبت نافضة جسدها فسقط - كبعض
التراب - عنها .. القى بطوله عليها .. انحرفت قليلا فسقط على
الحصيرة .. ساكتا ..

- جاموسة ..
- مش ه .. اكلم ..
- زى اهك الفلاحين البهائم ..
- احسن منك .. ومن اهك ..
- جاموسة .. بنت جاموس ..
- احسن منك .. ومن اهك ..

... من بين الجفون .. بيضاء الجلد مصفرة .. طاش سهمان من
بصر .. الظلام تطفح به الحجرة .. احسن الظلام ثقلا طينيا يحط
عليه .. يسد منافذ انفاسه .. احسن الحصيرة تحت جنبه .. سقف
الحجرة .. كان الواحا زيتية سماوية برسوم الملائكة .. ما كان امامه
الا ان يبيعه .. ليس بالتحديد ليتزوج الجاموسة .. ليشتري كيلات
الذرة .. الشبايك .. ماذا كان يفعل .. لو لم يبيعه لسرقها
الفلاحون .. البراغيث تزحف كطواير النمل على جسده .. الحجرة
تضيق .. جدرانها تقترب .. تكاد تنطبق .. سقفها يهبط .. أجزاء
كتلية من الظلام تنتقل امام عينيه داخل الحجرة .. لفحات من هواء
بارد اسود .. تهوم على وجهه .. دك عينيه .. انطلاقات مضيئة
لامعة تسبح في الفراغ الاسود .. اصوات انهيارات تطرق حسه ..
كبروق الرعد التي تصاحب نوبات الشتاء المفرق .. رفس برجليه ..

قعد القرفصاء على المخدة .. سحب اللحاف .. القاه على رأسه كخيمة
بختى بها ..

- ألف لك سيجارة ياسى توفيق .. ولو انها مش قد المقام ..
- يا اولاد الحرام .. دا .. سى توفيق .. ابن ناس .. كانت
السراية دى زى عش النحل .. الدوام لله ..

- قسمة نشوف بعض ثانى ياسى توفيق .. بعد ماحضرة المفتش
الله يرحمه .. طرد جدى رجب .. ابويا رجع البلد ثانى .. ه ..
يعمل ايه .. مالوش حتة غيرها دا ابوه وابو ابوه مدفونين هنا .. تعرف
ياسى توفيق بالمناسبة .. لامؤاخذة .. الله يرحمه المفتش الكبير ..
ماكنش من .. ماكنش من بلدنا .. اباهتنا كانوا بيقلوا كده ..
- ع النسب ياشاطر .. ياخى مين اللى .. داك

كانت الاغنية ليلة الدخلة .. احس الاهانة ليلتها .. ان يناسب
الفلاحين ان تغنى له نسوانهم .. يحسبوا نسبهم فخراً .. كان على
حق ان رفض الزفة .. ان يسير الى جوار العروسة حول البلد ..
ابن الاصول يا بهائم .. ليس ملك نفسه .. جدى ماكان يقبل ان يزف
كذلك

.. اصوات هامسة يسمعها فى جنبات الحجرة .. هسيس اللحاف
ينزلق من على رأسه .. انزلق اللحاف أم شده عفريت .. هبة
هراء بارد تفتح فمها .. داخل الغم اسود مظلم كخارجة .. العفارت
التي رآها الفلاحون .. البهايم لا يتحدثون عن السراية الا ويحكون
عن العفارت .. عفارت تتخفى فى الاشكال والخلق التي تريدها ..
يخصون .. واحدة .. لا يحددون عفريت او عفريته .. يتفقون على
انها تتخلق فى شكل امرأة عجوز .. متشحة بالسواد الدامس ..
امام الجبة المبحورة من السراية .. ترسل شعرها طويلا .. ينسدل
على جسدها كله .. لا تكف عن تمشيطة .. عينيها - من وراء
الشعر - تبخ شرار ..

العفارت تلف السراية .. سحالى تزحف الى جانب القفزات
الفجائية .. فتران ام عفارت ..

.. اطلق صرخة .. فى حقيقتها آهة .. انه لم يسمعها احد
سواه .. حتى الجدران الحجرية .. جدران السراية .. لم يصلها
الصوت .. او ان الاحجار - هى الاخرى - احيانا تؤدي صلاة
الصمت فى الجنازات المهيبة .. وتشارك الشمس فى تشييع ليل
طويل .. لتدور الدورة ..

.. سطح المسجد الحجري ممتد امام عينيه امتاراً بدت له
فسيحة .. بقدميه داخل الخف الشقافي بالجلد والنعل ، يدور فوق
سطح المسجد .. مطلاً على القرية .. ذبيحته الليلة تحديداً ..
نهاره هو لم ينته بعد .. مغربه تمسك بشمس خيوط صفراء ..
تختفي وراء سحبات شتوية داكنة ..

.. من بين الجفون .. بيضاء الجلد مصفرة .. ينطلق سهمان
من بصر .. سطوح دور الفلاحين .. متلاصقة .. كل سطح يسلم
للثاني .. لا حاجز سوى اطواف الجلة الناشفة .. عيدان قش اللدة
حطب القطن .. اكوام الدريس والتبن .. تجاوز ببصره السطوح ..
اشجار الكافور والصفصاف والتوت والجميز .. جماعات ابي قردان
ظائفة .. غيطان واسعة تمتد مع بصره حتى تلتقي بالسماء .. هذه
الفيضان كلها حكمها المفتش .. وقف ببصره عند السراية .. اندار
عنها في غير مودة .. تلفت يبحث بين سطوح الفلاحين .. هذا هو
سطح ابي العنين زوج نظيرة .. نظيرة لا تحرك بين صدره تأمه برغوث
عادت تمشط شعرها بالجاز .. ابو العنين من وامها وهي من وامه
كان لابد لنظيرة ان تتزوج .. تقدم ابو العنين .. اولاد الفلاحين
تتزاخمون حول حنفيات دورة المياه .. ظياط وعراك وشتائم ...
بهائم كأجدادهم .. لن يكف عن محاولة منعهم من غسل ارجلهم من
حنفيات المسجد .. المسجد للصلاة وحدها .. عندهم الترععة
يفتسلون في مياهها مع الجاموس والعجول والبقر .. اسمه يتردد
بين الاولاد المتجمهرين حول حنفيات دورة المياه ..

- ياشيخ توفيق .. ياشيخ توفيق ..

- وله الشيخ توفيق نازل لف على سطح الجامع .. مش عاوز ،

بدن المغرب ..

- يا مففل أصله نسي العمة ..

- هوه .. مش عاوز يجوز .. ثاني ..

- نظيرة .. توبته ..

- بابن الكلب .. م تفكر نيش بالحرمة دي ..

- ه .. تعمل .. راجل ..

- على الطلاق من دراعى انت طور .. نظيرة .. يا بنى .. مهرة

.. بس يا خسارة عايزة خيال ..
 - البركة فى ابو العينين .. غفير حكومة قد الدنيا ..
 - الى مايعرفش يقول عتس ..
 - يا بهائم .. انتو فى بيت ربنا ..
 - اسكت انت يا دغف ..
 - يا اخى سيبك منه .. اصله .. حمار شغل ..
 - اسمع .. ماناخذ الطور ده .. نسقيه نفسين حشيش .. تنور
 دماغه شوية ..
 - يابنى على الحرام .. ده بعكنن بلد .. ليخليها ليلة قطران ..
 لو اسطل يقول ودونى الفيط اعزق ..
 - مساء الانس .. يا شيخ توفيق .. يابن نظيرة ..
 - يابن الكلب .. م تفكر نيش بالحرمة دى .. احسن على الحرام
 دماغى يدوخ ..
 - امشوا .. ملعون ابوكو .. هو هنا محششة .. يا اولاد الكلب
 - خش يا راجل .. جوه الجامع .. احترم نفسك ..
 - يا اولاد الكلب .. م كله جامع ..
 - يا راجل انت كبير .. احترم نفسك .. دى اسمها .. دورة
 فيه .. فاهم .. دورة فيه .. نتف ونتف ونشخ فيها كمان ..
 - يا اخى سيبك منه .. الناس لما بتكبر عقلها بيخرف ..
 - يا شيخ توفيق .. يا شيخ توفيق المغرب وجب .. أدن يا شبع
 كفت ..
 - شخ الكلب فى حلقك وحلق ابوكو فلاحين بهائم صحيح ورحمة
 جدى .. ماني مدن ..
 بهدوء توسط واحد من الفلاحين سلم الجامع وردد كلمات الاذان ..
 توفيق ان يؤذن مغرب هذا اليوم .. ضاع التفتيش ببلاده العشرة ..
 لكنك يا توفيق ما تزال حيا .. لا تستسلم .. الليلة ليلتك .. اضربهم
 ضربتك الاخيرة .. الفلاحين الكفرة .. يريدون ان يكسروا الدرجات
 التى خلقها الله .. القرية سطح واحد ساكت .. ليل الشتاء المعتم ..
 السكوت يحط على كل شىء .. على الفيطان .. دورة المياه ساكنة ..
 انصرفت الجحوش الرافسة .. يقف لحظة تأمل .. من بعيد ..
 انشقت شعلة لهب خافتة .. من السراية ذاتها .. اللهب يزحف على
 الاعشاب القش اطواف الجله التى زرعها الفلاحون حول أسوار السراية ..

النار تمتد الى السطوح .. قش الدرة والارز يشتعل .. النار تنقل من سطح الى سطح .. الحطب وفروع الاشجار الجافة الملقاة على السطوح تطلق الشرر المتطاير .. حوائط الجلة الناشفة .. الدريس .. اكوام الدرة داخل اغلفتها .. النار تنفذ الى داخل البيوت .. تحرق السطوح .. النار داخل الزرايب تشوى الجاموس والبقر والحمر .. تسقط على رؤوس النائمين .. جزاءكم يا بهائم .. يابلد كلك ضلال .. النار تصعد في كتلة واحدة كبيرة الى السماء القرية كلها كتلة لهب .. النار تزيم العتمة .. اشجار الكافور العالية بفعل ضوء الحريق تلقى بظلالها كالاشباح الراقصة .. توفيق يلهم .. تفصيدات العرق تغطى جبهته .. التفت الى سطح المسجد .. احس بدوار يلف بدماغه .. يتلمس في الظلمة الحانكة موضع تدميه بتحسس خطواته .. يبحث عن السلم .. كل شيء ساكت مظلم .. ببطء وبحذر ينزل درجات السلم .. شفتاه مزموستان .. اللون الحريقى ارضاه تماما .. ترى هل سيحدث ذلك حقا .. اسلق نحيطة فارغة عالية مسموعة من غير احد ..

- ٣ -

النجوم معزولة هناك فى الاعالى وراء ستائر كثيفة من سحب مظلمة .. فوق القرية قبة كبيرة سوداء .. هبات ريح ثلجية كالابر .. هز اوراق اعواد البرسيم الفافية فى الفيضان .. تطرد الذئاب والقطط البريوى داخل جحور طويلة متعرجة .. ضفدعة تائهة شريدة مسطواة تطلق فى الفضاء الخلوى الدامس نعيبا منفردا كاداء الشهادة فى ساحة قضاء فارغة .. الاكنان مغلقة على داخلها .. فى حوارى اقربة الطينية ، الظلام حواجز متراصة من الطين .. يشرخها بصيص مخنوق منبعث من فرجة باب او من بين ضلفتى شباك .. مخلوق آدمى باكتافه الضيقة .. بحدائه الشقاقى الجلد والنعل ، يشق فصل الشتاء اجبته الصفراء المرتعشة .. بتلفت وراءه فى حذر عميق .. يخشى اشياء لا يراها ، ماثلة امامه وخلفه يقينا .. يتحسس جنب جلبابه المنحول ليفته .. يطمئن الى علية الكبريت .. من عليهما بأطراف اصابعه لم يركيف انطلقت من بين اصابعه وكأنه يقرأ ..

ماركة الهلب مرسومة على العلبة الصغيرة .. هنا الذى كان اسطبلًا
والخيول العربية الاصيله ، غدا شونة حطب .. شونة عالية .. جميع
ايام طويلة .. الجاز يملأ صفيحة ينتظر .. لكل كتاب اجل ، الليلة ..
سترى من يضحك .. لم يعرف لم او كيف انطلقت من بين أسنانه
ضحكة متربصة .. هم ان يلتفت وراءه ، خشى ان تصطدم عيناه بواحد
من الفلاحين .. كالشياطين يملئون كل مكان .. المصاطب ..
الفيضان .. دورة مياه المسجد .. القاعات العظنة .. أسرع من خطواته
.. الخشبية ان يكون احدهم متعقبة .. لا تفارقه ، اولاد الكلب دورهم
مفارقة .. قطرة قفزت عبر الشارع من سطح الى سطح .. ومضة رعد
شقت قبة الظلام فوق القرية .. كلبة عضاضة من مكمنها لصق
عتبة باب .. نبحت الزول المتحرك فى الظلام جرى متخذا طريقه الى
جانب الحيطان. هذه هى السراية .. ترقد مستسلمة هنا كانت البوابة
الكبيرة .. باع خشبها ام سرقة الفلاحون .. المفتش بنفسه وقف هنا
من يدري .. لعله وقف على نفس الموضع الذى أقف فيه انا .
حضرة المفتش وقف هنا .. جلد الفلاحين . ضربهم عراة بالكراياج ..
القدمان تصبران البوابة الكبيرة .. الوجل الدينى ابرز مشاعره ..
مزيج من الخوف والحنين والوحشة .. واه من التصميم .. لم
يرامه .. نظيره لو لم تكن فلاحا .. انقباض لا ارادى يلفه من داخل
صدره .. توقف .. التفت وراءه .. دماغه بدور .. يكاد يقع .. جده
يقف امامه .. ابيض فى ابيض .. تماما كما كان يحكى رجب عن
أبيه عن جدته .. مهيب الوجه جلاليه .. يبتسم لسليله ..

— جدى .. جدى ..

.. توفيق ..

سافعلها الليلة .. ساحرقهم ..

.. اعرف ..

— .. جدى .. جدى .. هل تعرف .. لا تتخلّ عني .. أنت
تشير .. فهمت باحدى .. تطلب منى ان انتظر حتى ينتصف الليل ..
كانت الفكرة فى بالى . حتى ينام الفلاحون .. سليلك فيه منك
حصاصتك .. لاتقلق باحدى .. هل صدقت انى ارضى بهذه الاهانة ..
اخيرا خادم مسجد للفلاحين .. خادم مسجد أو مؤذن باحدى لانهم ..
ذاك ذنب حفيد آخر هناك فى مصر .. سؤال باحدى .. نظرة ..
آه لا تعبس .. ارجوك لا تتركنى .. الفلاحون لا يعرفون انك مقيم فى

السراية .. آه .. نسيت ان اسالك .. ام اننى سالتك ونسيت
الجواب .. ام انك لم تجب على سؤالى كنت اسالك عن نظيرة ..
ارجوك لاتعبس .. لا احتمل ان اراك حزينا .. انت تدرى كم تحملت
من اجالك .. انا وحدى لاستطيع ان اعيش الا بك .. باقى السلاية
هناك فى مصر .. اظنك يا جدى لا تعرف كل احفادك فى مصر .. الخطا
خطاهم .. انت لم تجب عن سؤالى .. سالتك عن نظيرة .. ام انك
اجبت ونسيت انا .. انا انسى احيانا .. احيانا قليلة يا جدى .. جدى
انك تبتسم .. انا سعيد ان اراك تبتسم .. لانفوتك فكرة واحدة
ولو كانت طارئة .. لكن لا يهكم .. انا اعرف ان الفكرة من
حقدهم .. انهم يحقدون عليك انت يا جدى .. لكن لا يهكم .. منذ
متى اقمنا لهم وزنا .. هؤلاء الفلاحين البهايم .. بحقدهم يحترقون ..
ما معنى ان يمصصوا بشفاهم كلما مررت عليهم .. ما معنى كلمة
لطف ..

.. آه يا جدى انك لم تجب عن نظيرة .. انت الاخر تنسى .. هذا
حسن .. كنت اظن سليلك وحده هو الذى ينسى .. اكتشفت الان ان
الجد العظيم هو الاخر ينسى .. من نحبهم لابد ان يشاركونا نقائصنا
ذلك شرط .. انك - ولا تؤاخذنى - يا جدى لست الله .. قد تغضب
قليلا .. لكن لابد ان نتصارع من حين لآخر .. ذلك مفيد يا جدى ..
انا احب ان اصارحك لا اخفى عنك سرا .. شئون السراية مشتركة ..
حضرتك وانا مسئولان عن السراية .. ثم لاننى احبك .. لذلك انا
اصارحك حتى لو اغضبك ذلك .. من يحب انسانا لا يخفى عنه
شيئا .. حتى الهمس الخفى الذى يلم به نائما .. ليلة قدر هاه
يا جدى صدقنى .. يارجل كنت احدثك عن نظيرة .. عن نظيرة ام عن
الفلاحين ام عن الديون العقارية .. يالطف الله .. الديون العقارية ..
صدقنى يا جدى عمري ما فهمت هذا الكابوس .. الديون العقارية ..
اولاد كثيرون لك استفادوا .. ابى رحمه الله .. لا اعرف .. لا اعرف
لم يكن شاطرا ، لم يستفد من الكابوس .. مات .. ما علينا يا جدى

.. قل .. خبرنى .. كنت أسألك عن ماذا .. حقا أنا ولد شقى
 تعميس .. أسألك أنت ان تذكرنى .. كأنك تابع .. هذا خطا الكفار ..
 اننى ابن ناس .. قد لا اكون ذهبت الى مدارس .. لكنى سليل
 المفتش .. ان اردد كلمة عيال أفلاحين .. توفيق لطيف .. بالمناسبة
 يا جدى يبدو ان الليلة ليلة القدر .. اعرف كل شيء .. بتكشف
 كل شيء .. كلمة لطف .. مامعناها يا جدى .. تعرف .. أقسم ..
 او .. كدت أقسم لك برحمة جدى يا جدى .. لا .. لا .. لا .. دعنى
 ارتب افكارى .. لا احب ان اترك فكرة لا اطرحها امامك لا بد للانسان
 من صدر يلقي براسه عليه لا بد للانسان من آخذ يسمعه ويسمعه
 منه .. حمدا لله انك معى يا جدى .. انت تصدقنى .. لا بد انك تشك
 فى كلمائى بعد كل هذه الصحبة الطويلة .. لا بد للانسان من آخر
 يصدقه .. نعم يصدقه يا جدى حتى لو قال كذبا .. ذلك شرط ..
 نظيرة مثلا اريد ان أسألك عنها .. هل كانت أمينة .. لا تعميس .. لا تعميس
 .. اتوسل اليك .. ليس لى سواك .. لم يعد انت الآخر لا تعرف
 من أحفادك سواى .. على الأقل انا أكثرهم حاجة اليك .. حقا يا جدى
 انا فى حاجة اليك .. والا كيف اقضى ليلالى الطويلة فى هذه السراية ..
 لا بد للانسان من ونيس .. لن اجد آخر منك .. عشت حياتى من
 أجلك .. لا تظننى ضقت بذلك .. انت جد عظيم ليس لكل الناس
 اجداد عظام .. لذلك حياتى كلها من أجلك .. مادام الجد عظيما ،
 ليس بكثير ان يوبى الحفيد له حياته ، الانسان العظيم هو الذى يبحث
 له عن جد عظيم .. لا تبتسم .. لست مفرورا حين وصفت نفسى
 بالعظمة .. عظمة الانسان من عظمة الهدف الذى يسعى اليه .
 ويدوب فيه ويضحى من اجله .. حياته كلها .. يضحى من حياته
 كلها .. توسلت اليك .. لن اقول تذكرنى .. ان توقفتى .. الانسان
 فى حاجة الى من يوقفه من حين لآخر .. الله وحده ليس فى حاجة الى
 من يوقفه .. ذلك ان الله يا جدى ليس له حدود .. تعميس .. اعرف .
 كنت تتوقع ان اقول ان جدى هو الآخر ليس فى حاجة الى من يوقفه
 عند حده .. لكن .. يا جدى .. أنت تعرف .. نظيرة يا جدى ..

صبرك على أنت تعرف ماذاحدث فى تلك الليلة .. غير معقول انك لا تعرف .. لابد انك تمزح .. يارجل عفوا .. هذه اول مرة اخاطبك بهذا الاسم .. يبدو اننا صرنا صديقين .. لابد للانسان من صديق يحدثه بلا كلفة وهو نائم .. انت جدى العظيم موافق .. حمالك الله .. والا بالله قل لى كيف تحتمل الحياة اذا لم يكن للانسان صديق .. لكن دعنى اصارك انت تحفظ معى احيانا .. حقاً الحدود بيننا قائمة .. لكن الصداقة يميتهما التحفظ .. قل اذن مارايك فى نظيرة .. مارايك فى الفلاحين .. فى عيالهم .. اعوذ بالله .. ولاد حرام .. هل قلتها هل قلتها انت ام خيل الى انى سمعتها، احيانا قليلة يخيل الى انى اسمع كلمات يرددها هواء السراية احيانا يخيل الى انى ارى اناسا ليسوا معى .. تظن صمموا على ماذا هؤلاء البهايم .. ان ازف الى جوارها .. البس جلاية جديدة اقف الى جوارها .. تلف حول القرية .. كدت اخضع كنت فى لحظة الضعف هذه .. لكل منا لحظات ضعفه يا جدى .. ألم تضعف مرة واحدة فى حياتك لا سمح الله .. لاستطيع ان اقول انك تبالغ .. لكن الذى لا يضعف ليس انسانا .. جدى عموما دعنى اصارك .. حضرتك تخليت عن كثير من صفات البشر .. انك تقترب ان تكون الها .. هذه كارثة شخصية بالنسبة لى انا .. كيف اسامرك .. امصدقك .. ان القى براسى على صدرك .. ان اكذب عليك واتوقع ان تكذب على .. ان اعترف امامك بنقائصى ان تشاركنى نقائصى .. ان اسالك دون حرج .. هل حقاً يا جدى تريد ان تكون الها .. انى اشعر بالحزن .. الانسان فى حاجة الى انسان .. الى ونيس .. الى اليف .. وليس الى اله كنا قد اقتربنا .. ضحكاتنا كانت قد طرقت فى فضاء السراية .. حسنا يا جدى انت تريد ان تكون الها .. انا لا اعترض .. لن اعترض يا جدى .. لكن صدقنى انا حزين .. لأول مرة اشعر بالحزن .. بالوحدة فى ليلتنا هذه .. ان الالهة لا يصادقون البشر .. البشر فى حاجة الى بشر .. كنت قد ربت ايامى .. ان

تكون سرى .. سعادتي نجواى .. انت لا تريد .. جدى .. هل انا
 اخطأت .. لقد عشت مكتفيا بك .. هذه السراية الكبيرة الواسعة
 ماكانت تخيفنى اطلاقا .. لانه آخر الامر سأجذك .. اجسذك فى
 انتظارى .. الفلاحون فوق المصاطب وقباب الافران يتزاحمون
 كالنمل .. انا مكتفيا بك وحدك .. اصبحت حياتى كلها كنت « بكر
 العين » عدل القرية كلها .. هل كتب على آخر الامر ان اعيد ترتيب
 امورى .. كيف حدث ماحدث .. كيف وقع هذا الشرخ بيننا .. الا
 يمكن ان يتحد الانسان مع غيره حتى لو كان هذا الغير .. جدا ..
 ملاكا .. نورانيا .. قال الخواجة صادق .. الباشكاتب العجوز ..
 الابن وحده هو الذى صلب .. غلظتى يا جدى انى تعودت على غير نفسى ..
 على الواحد ان يكتفى بنفسه دوما .. لكن كيف يكتفى بنفسه ..
 « عجب بعد كل هذا » .. كل هذا .. لم انت صامت يا جدى انت صرت
 الها حقا .. نعم انت صامت يا الاهى .. مازالت لدى اشياء كثيرة كان
 بودى ان احديثك عنها .. ان ابوح لك بها .. ان افضفضها امامك ..
 لبله ان هربت نظيرة .. تركتنى وحدى .. آه يا جدى انى فى حاجة
 اليك .. اوه .. اوه .. لست فى حاجة .. كيف تعيش انت فى
 الاعالى .. مع الصمت المطلق .. مع الوحدة المطلقة .. مع الاكتفاء
 المطلق .. لكننى لست جدا .. لست الها .. انا حفيد .. كنت اود
 ان تبقى ضحكاتنا .. نضحك سويا من الفلاحين .. نعجب من مواويلهم
 السخيفة .. دا .. خدما خمال .. م هوش خيال وسايسها .. الليالى
 الطويلة كانت متبقية امامنا .. اوه يا جدى .. صدقنى .. عفوا ..
 فلنمخ هذه الكلمة التى فرقت بيننا .. هل انا الذى قلت فرقت ..
 هل افترقنا حقا يا جدى .. جدى .. جدى .. جدى اين انت .. بالله
 عد .. عد كما تحب ان تكون .. الها حسبما تريد .. عد وهذا يكفى
 بالله لا تدعنى يا جدى .. اتضرع اليك .. اتوسل اليك .. لا اطيع ..
 انت الذى لى وحدك لا تتركنى هكذا .. عد لادعك .. بيوت الفلاحين
 تشفى كخلايا النحل .. عد عد انتفق .. عد لنتفق على أن نفترق ..
 يا جدى .. اوه .. لقد تذكرت .. انت تتحدث بلغة الالهة .. انت

تذكرنى .. كنت قد نسيت الرسالة .. الليلة .. انا ام الفلاحون ..
لنرى من منا سيمضحك من الاخر .. جيبى .. علب الكبريت ماركة
الهلل .. صفيحة الجاز هاهى .. الحطب هاهو شونة عالية جميع
ايام طويلة .. بالضبط هكذا .. أرش الجاز على الحطب .. الوقت
مناسب تماما .. شكرا لك يا جدى .. سأشعل عود الثقاب بحذر .
هكذا ..

عين الحياة .. نظيرة

عين الحياه ... نظيره :

التراب الاحمر الذى لم يعد احمر الاغبش الضبابى لونا اللاسع مذاقا .. تشده من داخل الكانون ، مستعينة بفرع شجرة خلة بيضاء ناشفة ، اصابع مكدودة مرهقة .. جافة الجلد متشققة ايلانا بالتكرمش ، تبدل الجلد على العظم ، بروز العروق الزرقاء السوداء فى خضرة كابيه ، ملساء نافرة واهنة فى ظاهر اليد ، ثم الاستقامة الى الابد .. مرة اخيرة وعظمى ، ذات لحظة قابلة ، لاشك فيها وتكف هذه الانامل عن اللعب فى الطين ، عن لم اجله .. عن دفن بذور القطن والذرة والقمح فى بطن ارض الناس ، وتعهدها نبتة تطل من الارض بورقتين ثم شجيرات مستوية العود ، وتسلم الثمرة - دائما - لصاحب الارض دون اعتراض ، اللهم حكمتك .

شهد النار يهب من بين جدارى الكانون ، بلفح ساقها ، يملا ماتحت ذيل الجلابية الشيت التى كانت منقطة بالورد الاحمر ذات يوم ، الصهد يحتاج المناطق العليا ، قبة سيدى ذى النون صاحب الكرامات ، العائش ابدا فى ادمغة صبيان ورجال قريتنا لا استثناء للبنات والنسوان تأمله الاطفال كاطلسم ، يدور حول مقامه المهيب الشريف الصبية والبنات ، يضيئون له الشموع ، ليلة الدخلة يدقون له الاكف والدقوف ، يقرأون له الفاتحة ، يرسمون له علامة الصليب من بعيد متحجرين اذ يتقدم العمر الغارب ويزحف الموت الذى يمسح كل شيء حتى كرامات سيدى ذى النون التى لا تنتهى .

هى ليست كالفلاحين ، بالتحديد ليست كنسوة الفلاحين حطهم مشون على السطح ، ماعلى الواحدة منهم الا أن تزعق صغيرتها او تطعم بنفسها السلام وترمى بحزمة حطب القطن او قش الذرة امام الفرن اللخبيز او الكانون للطبخ هى قدرها العادل خصها بفروع الصفصاف والسنتط والكافور وشجيرات الخلة الناشفة ، شجيرات زرعها الشيطان نفسه على حواف المساقى وحدود غيطان الفلاحين وجسور

الترع ، خضراء ، فتلية الاوراق ، بيضاء الزهيرة ، كقطع الجبن
 القرش التي ياكلها اولاد الفلاحين بلاش ، هي تشتري - في أيام
 الرخاء الوافر - الحنتين بتعريفه ، بأصابعها هذه بنت الكانون الذر
 تقتعد الارض امامه ، تلقمه وقوده ، جمعته بنفسها من الفيطان
 عقدته بحبل ، قعدت على قزحها ، عافرت حتى رفعت الشيلة ضغطا
 من على الارض حتى استقرت فوق يافوخها سندات الشيلة بيدها
 اليمنى اليسرى ضغطت على ركبتيها .. شدت جسدها كله ...
 كأنها ستلد ... كأنها ستقذف من جوفها بأرطال لحم اذ وقفت منتصبة
 على حبلها والشيلة فوق رأسها كانت حبات عرق متناثرة على جبينها
 .. كانت حبات عرق تجمعت منسالة على قناة ظهرها ، كان وجهها ،
 متفصدا باللون الاحمر الفامق ، في اذنيها صفير .. على انها لم تحس
 طويلا بالدوخة التي المت بها ، على جداري الكانون تستقر حله ،
 عدود من الدخان الازرق الابيض المتوج ينبجس من نار الكانون ،
 يشمل وجهها ، مع الصهد ، يصطبغ الوجه باللون الاحمر المختق
 بالدخان يقتحم عينيها ، ينحدر من مآقيها خطان من دموع ، دموع
 لا تشي بفرج ، لا تنبئ بسخط .. في قابل العمر وهي تواجه واحدا
 من هذه الكوائن ، سيهتك الدخان غشاء الانف وتختلط الدموع
 بالسائل الانفي ... ستمد الاصابع العجفاء تجفف بالوهن
 منخاريها وتمسحها في الجلباب الاسود الباهت بلا أطياف ورد ،
 تشرب فتلاته عرقا وترابا وطينا وبعض الوحل .. زحافات
 الدخان تتوزع بين هواء سطوح القرية الحر الطليق .. وهواء الحارات
 الضيقة الشعبانية .. تلتقط الانوف نثارات عمود الدخان بما يحمل
 من رائحة اعواد الخلة المحترقة ، يتحد ، ليس بكلمات منطوقة او
 باشارات مرسومة ، يرسم في الدهن معنى ، ولا مسافة - عند
 من لا يدري - بين صاحبة الكانون وصاحبه .. يقعان - على اختلاف
 الدرجات وتباعدها - في منطقة ملعونة ، ليست من الدين يسوون
 طبيخهم على نار اعواد حطب القطن رائقة اللهب والرائحة صافيتهما
 او على نار وابورات الجاز البريموس التي تزن في البيوت المستوردة
 في حجرات الحصرية ومقرئ القرآن واصحاب دكاكين المعسل
 والسجائر والصابون والحلاوة الطحينية والمعسل الاسود ، سادة
 قريتنا الصغار .

- قسمتي كده .

لم تمشح الدموع الدخان .. الدفء .. دفء الدموع .. البعيد الهادئ المتجدد بالسيولة الوانية والمتحدر عبر الرموش ... أخف من أن يلسع وإعيق من أن يقف عند ملامسة بشرة الخدين في نغمشة خدرية محموسة محسوسة منملة ، غامضة تنتسب الى الانتصار البدائي الذي تسجله المرأة بآخر نفس من محاولات المقاومة الشرسة التي يعقبها غرز أظافرها في جسد الفريسة مع صلوات المهمة المتحشجة المكتوبة لا تكاد تبين ، ترددها جنبات الكهف الذي كان مظلماً بهيما قبل أن تخدش ظلمته فتلات قطن أو معدن تحترق وتضيء ، ويسد مدخله لوح خشب ويسمى بيتاً .. - قسمتي كده .

البناء الحجري الواسع الذي لم لحمها وعظمها وشيدت في ركن منه كائونها ، لا تعرف متى اقيم ، لا تعرف من بناه ، سراية عيلة الناظر .. الناظر يا أولاد كان يمسمر ودان الفلاحين في الطليبة ، كان يرمى نسوانهم في بير مسحور ، العفاريات تملأ الأسراية ، جدرانها عالية ، الفتحات التي كانت شبابيك تلمع عليها شمس العصارى أزرق وأصفر وأخضر ، مربعات زجاجية في حجم الجبنة .. دوائر في حجم فتحات القلل القناوى .. لمعان يربك عيون الفلاحين دهشة واستغفاراً لله العظيم الذي يخلق مالا يعلمون ، الشبابيك عيون مفعوقة في جسد الحيطان العالية ، تحديق فيها عيون الفلاحين فزعاً من السراية الميجورة .. الصبية الصغيرة تشير والمقطف المتهرىء فوق رأسها ، تلف به حول دابر الناحية ، مع صفيرات في لون الكركم ، يتسابقن الى درقة الجلة ، ساخنة فور سقوطها من بطون جاموس الفلاحين تلقى على الدرقعة بعض قش السكة ، وبحرص تجمع وتكوم ، تستقر في المقطف ، في أدمة الصفيرات المتنافسات على لم الجلة ، يتناسب حجم البناء مع حجم العفاريات داخل السراية .. الصبية الجريئة وحدها هي التي غسامرت ومقطف الجلة يعتلى - رأسها ، وألقت بنظرة سريعة من فجوة شباك ، قدفت بحجر .. في فهمها رأس عفريت مبطوطة تكبر الصفيرات ، بتغير حشو الفراغ بين اطراف الاصابع واظافرهن الى طين أسود بدل الجلة الخضراء ، صرن نسواناً لهن حجرات ضيقة مظلمة رطبة يعرفن ويبول فيها العيال والمعيز ويلد ويفقس في أحجارها الدجاج والبط ، الواحدة منهن تنسل - في الليل - الى سراية عيلة الناظر ، تختلس

عددا من الطوب الاحمر لبناء كانون فرن ، او لالقائه فى البحراية
ينفع عند اللزوم ، فى قلب الصغيرة خوف مستقر عائم قديم ، السراية
البناء الخرافى المتحول المنسرب الحلمى ، يقف عاليا وحده ، تنشا
حوله وتتعدد دور الفلاحين ، كالنعش القديم الهائل الحجم الذى كف
اهل القرية من فرشه بلحاف مستعار من دار مستورة ، النعش
يقف ، وحده متساندا بين المقار ، يمثل فى فهم اهل القرية وكلماهم
أبناء ، مجرد مصمصة مسموعة اذا جاء ذكر سراية عيلة الناظر ،
وقد تنعقد كلمة ، كل ماتراه العين زوال ، على ان هذا البناء النعشى
قد تحول فى دماغ نظيرة ، وقد انتهى امرها ، مقدر من يوم الازل الى
ان تسكنه الـ ، عفرت مشجوج الرأس تتساقط منه دائما قطرات
.. دم احمر ..

بالدمع التحدر نفخت الكانون تحت الحلة ، تزرع الدخان المتراكم ،
تلتهب أعواد الخلة وفروع الصفصاف ، يسقط على وجهها ضوء احمر ،
يررز قسماته ، بالقماشة القديمة المتسخة ، بعد ان سترت العورة
سنين لاتحسب ، بعد ان ترقعت فى كل موضع ، الركونة ، بعد
العمر الطويل فى الخدمة ، الى جانب الكانون ، أمسكت غطاء الحلة
النحاس ، رفعت الغطاء ، اندفعت هوجة البخار الساخن ، المساء
ينز غليانا ، فى المصرف النظامى الذى ترقد القرية فى ظله ، محصورة
بينه وبين سراية عيلة الناظر وقضبان السكة الحديد الفرنساوى ،
فى عز الشتاء ، فى أيام برد العجوزة ، الدنيا ساقعة كالرصاص ..
مياه المصرف تجمد الدم فى عروق البنى آدم ، هى والمياه تغطيها حتى
الحزام ، منحنية تنقل قدميها بحساب ، بطن القدم يضغط وجه طين
المصرف ، الطين يبظ من بين أصابع القدمين ، تمعد يديها ، تتحسس
بهما طين شطـ . المصرف ، تبحث عن منامة من منامات السمك ،
حفرة فتحتها ضيقة تعشش داخلها بلطية .. بلطيتان او ثلاث ، على
ان الانامل العشر المتكرمشة الجلد ، تسمح وجه الطين ليس بحدرد ..
بتنبؤ ، تتشم رائحة السمكة قبل ان نلمسها ، الانامل العشر
المنجمدة المتباعدة لتفطى اكبر مساحة من مياه المصرف النظامى ،
متهيئة فى ومضة اقصر من ارتداد الطرف الى ان تتجمع وتلتقى
البدان فى شبكة حديدية لاتخترق ، بينهما سمكة كانت توا آمنة
تسبح خلية البال بحثا عن ورقة عود نسيل ، وهى تصطاد السمك

اكتشفت نافورة تقلب المياه الصافية من باطن الارض - يوماً صرخت
تجمعت النسوان والبنات اللاتي اندهشن ، فالمصرف في اوقات
امتلائه يتلح ماء النافورة .. ضحككن .. تشائمن .. تحاسدن
على الصيد .. اطلقن اسمها على عين الماء قبل أن يعاودن فسرد
اصابعهن في لعبة البخت ، وسط مياه - لولا برد الشتاء - لكانت
أسنة . لكنها تسحب القلة الفخار القديمة ، مكسورة الرقبة ،
سرداء بطيئة قبضة يد ، نزعت سدادتها ، خرقة قديمة ، صبت في
كفها الايسر ، حفنة ملح رشيدى خشن ، ملح لم تشتتره بالردة الخسنة
او باكواز الدرة او بأرغفة العيش كما تفعل نسوان الفلاحين ، مدت
يدها بالتعريئة الابيض المثقوب والذي يحمل نقشا تعرف بفطرتها انه
كتابة ، لكنها ، لا تعرف من هو السلطان حسين كامل الذي تحمّل
اسمه بين اصابعها ، على ان الكتابة - عندها - كالحجاب .. حضوره
يفنى عن فك أسراره .

هات باواد يا حسن بقرش ملح ، بس اتوصى ، احسن والنبى ارميه
لك على العربية وامشى .

وينتسم الراد حسن ، بائع الملح الجوال ، وتلمع سنة ذهبية
تراها زبوناتهن من النسوان والبنات ، فى قرى الجبهة وعزبها وكفرها ،
لا تعرف واحدة منهن ، من أين يأتى ، لا يعرفن سوى الواد حسن
بتاع الملح ، بوجهه الاسمر ، بطاقيته الصوف الحمراء التى يشبكها
على جنب رأسه ، تغطيها قصة شعر سوداء متفجم ، بصدره
المكشوف ، بصوته ، الملح الرشيدى الملح ، تعرف النسوان والبنات
انهن معشوقات حسن ، يعرفهن واحدة واحدة ، يوقف عربته على
رأس الحارة ، يملأ حفانه فولاً مدشوشاً ، يدسه فى مخلة التبن
والردة .. معاققة فى رأس البغل ، يدخل بوز البغل فى المخلة ، يربت
على كفله ، يطلق صيحته ، الملح الرشيدى الملح ، عيناه ترصد أبواب
البيوت ، يترقب زبوناتهن ، يعرفهن بالاسم ، يحدثهن فى بشاشة
ومودة وخلو نال ، لكن هناك فى عزبة ملعونة مهجورة فى آخر الخط
على شمال السما ، حظاً اسود ، ساق عربته اليها فى يوم شؤم ،
لا يشتري كل أهلها قدين من الملح .. هناك ، تتوقف عينا حسن
على باب دار بلا سقف ، يطلق صيحته الملح الرشيدى الملح ، يدق
قلبه حتى كأنه سيتوقف .. جسده كله مهياً للشلل حتى تخسرج

نجفة بقدميها الحافيتين ، بنهديها ، كقبضتي اليد ، بعينيها السوداءوين
ولا شيء ..

انا اقدر تمشي بانظيرة .. ياست الكل ..
.. يضيف بعد ان يأخذ التعريفة يضعه بين شوالين مفروشين على
الدربة ، حفنة ملح ، يتبادلان ابتسامة صافية تماما ، وقبل ان ينصرف
واذا ماكان الحر خاليا يثرثر ..
- معلش ، حظي زى بهيمتى ، م علينا ، ازى سى توفيق ، الايام

دى ..

هنا تتسع الابتسامة المشتركة ، تخبطه نظيرة على صدره ..

- لم لسانك ياواد ياحسن احسن لك ..

ثم وهى تطرد نفسها منسحبة من جواره .

- سى توفيق سيدك ، وسيد الرجالة كلها ..

يتأملها حسن ، كعبها المدعوك بالحجر الخرفيش .. بزى قدميها
المملتئين ، شعر الضفيرتين يتنطط بالتبادل مع كل خطوة ، تنطفئ
البسمة على شفتيه ، تختفى السنه الذهبية ، يخط البغل بهيمته ،
رفيق طريقه ، على كفله بود وعتاب وشكوى ، يتمتم .. ياميت ندامة
على اللى حب ولا طلش .. دماغه ، جسده كله .. شى يا حصان ..
الملح الرشيدى الملح .. يا خسارتك يا ابو على .. توفيق سيدك ،
ياميت ندامة على اللى حب ولا طلش ..

فى عين العدو ، ألقت حفنة الملح ، لمحت الملح للحظة مستقرا فى
قاع الحلة ، سحبت منخلا متسخ الاطار ، صدى الاسلاك ، قلبت
ورقات الرحلة المخروطة ، خضراء معتمة ، حمراء بنفسجية ،
اسفنجية ، متورمة بسائل ابيض شفاف مخاطى ، وسارعت باحكام
غطاء الحلة ، لم تقصد ان تكتم نفس الطبخة ، تنهدت بارتياح قدرى
قديم ، انحنت بنصفها العلوى ، مدت رقبتها ، نفخت الكانون ،
بعود صفصاف ناشف لا تذكر من ابن حملته على راسها الى البيت ،
وسحبت بعض التراب الاحمر من داخل الكانون ، دست لفة صغيرة
من اعواد الخلة .. امامها فسحة من الوقت .. تفصص التوم ..
تحمره فى الزيت .. تطش به حلة الرحلة ..

.. خطت داخل حجرة المعاش ، البلاص يقتعد ركننا من اركان
الحجرة ، يسد فمه حزمة حبا بحر ، مكفى عليها كوز صفيح .. علبة
سردين قديمة ، لم ترفع كوز الصفيح ولم تنزع سدادة البلاص ، لم

تفرغ لنفسها شربة ماء بعد ان تسند البلاص على ركبتيها ، لم تستطع ان تحدد ما اذا - كانت مرتوية او عطشى ، لم تشعر بالدافع القوى لاشرب ، هذا لاي معنى انها ليست عطشى ، يعنى بالتحديد انها ليست كفرانة من العطش ، اى مرتوية .. فى بثونة الحجر ، والشمس قد حرقت كل ماتحتها ، وهى فى واحد من غيطان الفلاحين تجمع لوزات التطن ، باصابعها العشر تبدل ، الكف التى يملؤها القطن المجموع تدسها فى سبها ، فى ناحية القبالة ، قد تكون جوعى كذلك ، لكن ذلك لا يمنعها من ان تخطف رجلها الى اقرب قناة بحثا عن نقره فيها بلاصين من الماء .. لا يمنعها ان تكون حرارة الشمس قد اوصلت الماء الى قرب درجة الغليان .. لا يمنعها ان يكون نبات الريم الاخضر يقيم وجه نقرة الماء .. لا يمنعها ان تكون الطحالب الصغيرة تشرذ كالنسيم الطائشة على وجه نقرة الماء ، لا شىء يمنعها عن ان تفرشح على حائتى القناة الصغيرة ، تميل بنصفها العلوى ، ترصد فمها وسط اعلى النقرة ، تصنع من اصابعها الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة مجرافا صغيرا .. المجراف قارب مرجيحة صغير ، تقذف الماء الى اعلى قدر ارتفاع الركبة مرتين ، تلتقط شفتاها قذيفة الماء ، تطبق شفثيها ، تجعب حفنة الماء ، وفى قذفات سريعة متتابعة تتناسق فيها حركة الكف ، ترفع الماء ، وحركة الشفتين ، تلتقطه من اعلى ثم تنطبق عليه وتجميعه .. وقبل ان ينده عليها صاحب الارض حتى لا يضعح اليوم الذى كراها فيه اجمع القطن لا لمرقعة النسوان التى يعرفها .. عليها ان ترتوى وتجفف شدقيها وتحمد الله الذى خلق من الماء كل شىء حى .. واحيانا لنبرد به جوفها .. عليها ان تسد اذنيها عن الشتائم والانتهاكات .

... عليها ان - تهتمهم .. قطعة الفلوس على الى عملوها ، والله فلوسكم يا اولاد ستين كلب يامسايرم فيها بركة ، ملعونة الارض ع صحابها ، هتشتروا الشغالة بالقرشين اليومية ، قطعة تقطعم العيشة والى عابشينها . وعادت فاتخذت جلستها امام السكاكون اسندت زجاجة الزيت الى الجدار مسحت السكينة بطرف جلايتها التى كانت مشجرة ، لم تلاحظ البهتان فى لون الجلباب ، امسكت فم التوم المقشر تخبطه بالسكينة ، طاسة الثقيلة امامها ، سوداء بطبقات الزيت المحترق والتوم المحترق والبصل المحترق وصدا النحاس الذى كان احمر يوم اشتراه المرحوم جددا لامها قبل زفاف

الام ذات ليلة لم تحضرها نظيرة بنفسها ، وان ارتسمت في ذاكرتها كل تفصيلها ، فالام وان اصطنعت الرزاة وهى تحكى لابنتها لم يفت نظيرة مخايل الرضى وراء الكلمات ووراء قسماات الوجه الذى كان مليحا يوما لابند ، ماخلا وجهه من ملاحه ..

— قسمتى كده ..

لا تقصد شيئا بذاته ، البلاص ممتلىء لاكثر من منتصفه بالماء الصابح من التربة والمروق بنقى المشمش ، الطبيخ على الكانون ، غلوة وطش التقلية ، والجائع ياكل اصابعه لا ان يلحس ماعليها من طبيخ الرجل ، السكين فى يدها ، تدقق فى تقطيع فصوص التوم ، دون ان تقصد ، دون ان تدري ، عليها مجرد استجابة حسية البناء الواسع الخالى الذى حمل اسم سراية عيلة الناظر ، ما اطلقت عليه هو سوى اسم المخروبة ، للظلام الساحب المتسلل المقبض الذى فاجأ عينها داخل حجرة المعاش لحظة ان دخلتها ، او لعلها القطعة التى طلعت من تحت الارض تتمسح فيها بشدة وتحك نفسها فى الجنبه امام الكانون وترفع ذيلها المنفوش الشعر الى اعلى تدفعها عنها فى فشريرة جلدية داخلية عميقة ، القبط فى بيوت الفلاحين المعمورة بالعيال والناس قد تكون القرين ، الاخت التى تحت الارض ، القبط مثل هذه المخروبة على رأسها ورأس الذى بناها عفارىت مؤذية او لعله لهذا الخوف الذى يكمن داخلها ولا تقدر ان تنعتق جارية هربا منه ، نهرب من الم قدر فىن ، المكتوب مكتوب ، الى انكتب ع الجبين لازم تشوفه العين ، لا تفسكر هى ان تفر من اى شئ ، رب هنارت عناك ، رب العمر كله ، للتهويمات الغامضة الحزينة التى تنابسها وتستقر داخل دماغها. تحت الشعر الطويل المضفر الاسود لولا مابه تراب — مع هبوط الليل فى قريتها ، تخلو الفيضان والسكك والحارات والمصاطب من النور والناس ، الرجال والنسوان والعيان تفرق مجرد استجابة حسية ، قد تكون فى الضلعة الخرس ، او لعلها مجرد استجابة حسية ، قد يكون املاها اختناق حركة يدها وهى تخرط فصوص التوم الى قطع صغيرة فى حجم حبة قمح وسارت العدوى الى احساسها ، من اختناق جسد الى اختناق روح ، او اختناق لا تدري ماتاه ، فزامت واخذت نفسا عميقا واستغفرت الرب العظيم فى سرها وتاورهت ..

- قسمتى كده .

لا علاقة بين الكلمة المنطوقة واى شىء حول او داخل صاحبها
علها ترددها بتأثير - الورانة او العدوى من امها ، على قزحها تجلس
امام الكانون ، تنفخ النار فى اعواد الخلة وفروع الصفصاف وتغلى
الماء وتلقى ورقات الرجلة الاسفنجية المبطرخة بلونها الاخضر الاحمر
البنفسجى اليمادى ، تخرط فصا او فصى توم ، وكانت الام تلقى
نظرة سريعة خبيرة الى السماء وتحدد الوقت بتدرج كثافة هبوط
الظلام ثم باذان المغرب ثم باذان العشاء .. وفى الليالى المظلمة برصد
نجوم تعرف مواقعها ومواقيتها ظهورا واختفاء ، وكان يخنقها تخريب
النوم ، ودون ان تدري ، ودون ان تقصد ، مثل ابنتها ، تتلبسها
روح مخنوقة حزينة ، حزن ليس لشيء بذاته او على شيء بذاته ،
مايهمها حقا هو السر ، والحالة مستورة والحمد لله ، ياما عينك
تقصد عينها هي ، شافت يابنتى ، اقول لك ايه والا ايه ، قسمة
ونصيب ، او لعل النظرة الوانية حتى لتبدد عمشا ، او لعل الانتقاض
انتقل مع اون الشعر الاسود من جدة بعيدة ، دلقت ذات ليلة من
لبالى شهر هاتور ، طشت ماء على العتبة ولم تذكر اسم امون او لم
تمجد المسيح اولم تبسل فى سرها .

كلمات ممطوطة منقمة ، كلحن قبطى ، يصفره - دون ان يدري -
فلاح يسلى وحدته فى ليل حياض الصعيد ، كلمات لا ينطقها لسان ،
كل خلايا جسد ، صحا من النجمة .. مكسور من وسطه على
شجيرات القطن يجمع بيديه الاثنتين اللوزات البيضاء ، كلما امتلا
كف دسه فى الشمره متدلية امام فخذه معلقة من وسط ظهره ..
مر بصباح نادى مضرب وضحى مندر بشمس حارقة وقبالة يذبل
فيها كل الاخضر وعصر تتردد فيه اغنية تبتمث الحيل الفاتر ،
لكنه الجسد حى دافئ صاد ابدا .. داخل الجلاب الباهت ضاعت
وروده الحمراء فى غيطان الفلاحين الكفرة من طلعة الشمس لغطستها
داخل القميص البصلى واللباس دم الغزال والتكة صوف شبكها
عاشق قديم ..

ايش معنى يابخت .

من دون اليخوت .. ليخت انها لاتعيش لحظة حزن او لحظة فرح ،
تعيش لحظة نقص ، ليس نقص شيء بذاته ، الماء فى البلاص ،
الطبيخ فى الحلة ، أرغفة العيش قد لا تملأ المشنة لكن فيها مايكفى

للعشاء واللفطور وقد يتبقى رغيقان ، تلفهما مع لحل بصل في قطعة قماش من قميص قديم ، تحملها على رأسها ، وعلى رأس خط القطن الذى ستجمعه .. تبحث عن مكان متوار مترب ، تنبش بيدها ، بحرص شديد تضع قطعة القماش بداخلها .. وجبة الغداء ، ثم تهيل التراب ، تساويه بباقي الأرض ، تتفرغ هى .. تعطى صاحب الأرض مقابل أجرتها ، رفى أو ان الغداء تخطف رجلها أو تصف لعل من عيال صاحب الأرض النقطة التى يتوارى فيها أكلها .. نادرا ما يهتدى كلب صاحب الأرض الى مكان الرغيقين ، ورغم أنه لا يأكل العيش إلا أنه سيفتتها بمخالبه ، وفى هذه الحالة ، تشتم الكلب وربما صاحبه . واذ يجلس الانفار الجميعة فى ظل كيس القطن المنتصب فى القناسة لتناول غذائهم ، تفشل كل المحاولات التى يبذلها صاحب الأرض وزوجته والانفار الشغيلة فى حمل نظيرة على أن تملأ حنكها بلقمتين مع أى منهم ، الايمان المؤكدة بحياة سيدى ذى النون ترتفع الى سماء زرقاء صافية تمتد بلا نهاية حتى تلاقى الأرض لا يشوبها قيم واحد ، نظيرة شبعانة ، نظيرة بطنها لاتسع كسرة خبز واحدة ، ليس لها نفس ..

– ياه ، ياما عينكو تقصد عينيها هى ، شافت الحالة مستورة والحمد لله ..

نقصها لا يقع عليه بصر ، نقص يتخطى مطالبها الجاهزة ، نقص يستشرف دنيا غامضة ، دنيا بحالها غير التى تحياها ، دنيا ما رأتها وما سمعت عنها ولعلها – اذا سمعت اليها ذات يوم – تنكرها ولعلها – دون أن تدري أو تحس أو تعرف – تواصل بالكلمات .. بعد امها ، جدتها البعيدة ، البحث عنها ..

هو فين ياناس

سوق البخوت

اشترى لى بخت

وطشت التوم المحمر فى حلة الرحلة ، أعادت احكام غطاء الحلة ، تميات لانزال الطبخة من فوق الكانون .

– س الخير يانظيرة

لم ترد .. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم ، فى باطنها ان الرجيم صفة ود مشاكس ، ككوز اللرة فى ارض الفلاح يتأمله جائم لم يحسم امره بعد ، زابلتها لفورها لحظة الوجد النشوان الاسيان

البعيد الأغوار ، السؤال الذي لم يتشكل أبدا ، البحث الهائل المطوف دون دراية أو حس أو معرفة عما لا تعرفه بذاته .. عما تطلبه ومالا تطلبه بذاته .. ركبته ربيع لا تدرى ماأثاها .. فى وعيها أن المخروبة بحيطانها العالية ، يبقايا السور الذى حولها ، ليست من البلد ، أحست بعزلة المخروبة بدت غير مرتاحة ، أتجهت الى أن تتخلص من الموقف الطارئ المرهق ، لا لشيء أكثر من ذلك ..
- لا خير ولا يحزنون ..

الولد شحاته ، بهت ..

- أن شاء الله ماسرحتى ، لا انت ولا اهلك ، مرة جاموسة ، بنت ستين كلب ، لو كان جوزك راجل كان رباكى ، لكن كروديا .. كلمات الشتيمة جادة صريحة ، لا غمز فيها ولا تحويد ، شتيمة صادقة ، شتيمة مقصود بها الشتيمة لذاتها .. أحست بالخو ، بقسار المرجيحة ، جر الشتيمة مأمون محدد فى قبضة يدها ، كالقلته فى حقل القمح ..

- ماجاموسة الا امك واخوانك ، خدام ابن خدام ابن ستين كلب ، وما كروديا الا انت ، جوزى جزمته برقبتك ورقبة اسياذك الى تشتغل عندهم ..

.. ثم ضحكت الى أن انفرج ما بين شفتيها وبانت اسنانها ، عامل راجل زى الرجال ، وهزت رأسها ، رجالة آخر زمن ..
- أعوذ بالله .. لسانك متبري منك ..

... كانت قد انتهت تماما ، انتظم خفق قلبها ، سحبت نفسا عميقا ، عقلها الان فى رأسها ، تملك نفسها ، فى جيب شحاته ، أجرة يوم لجمع القطن فى غيط عيلة السوالم ، حسبت بسرعة ، لو تقبض أجرة خمسة ستة ايام مقدما ، تشتري كيلة درة ، ابتسمت وهى تنهد ..

- انت ياراد يامشطوب الاسم بتطلع من تحت الارض ، لابس طاقة الاخفا ؟

بدات تتأمل تفاصيل وجهه ، وقفت عند القصة والطاقة الصوف الحمراء الواقفة على مؤخرة رأسه ، الشارب المبروم ، العصا الخيزران الرفيعة ، دليل الفتوة ..

- عامل راجل زى الرجال ..

ثم ضحكت .. كانت قد هضمت اللحظة ، ضربته على صدره ..

— شنب وعصاية وعاج الطاقية ، فاكرك الغنيوة ، انا خدت الواد ، ده غيه ، على عارضة الطاقية ، ذاتها وكسه ..
شحاته لم يفك مسارات التغيير فى حس وفكر المرأة التى يقف امامها ، بمزيج من حسه وفكره ، جدعنته وفهلوته ، التقط ان شيئا كان موجودا ساعة ان باغت نظيرة ، ثم ، طار ، ودون ان يقصده سوى ان يتحدث ، يتحدث ليفكر ..
— بت يانظيرة ، فين توفيق ..

السؤال برىء ، او بدا لنظيرة انه محايد ولا يقصد به الا ذاته ، كانت قد رحلت عن .. لا خير ولا يحزنون ، لعلها احست خيبة امل فى انها قاومت وهما ، او قاومت ، ولعلها ستنكر ، وستحلف بسيدها ذى النون ، قارمت نفسها ، اقرب الى حالة الفتور همدانة ، تجرى بدهنها حسبة ثمن كيلة الدرة وممن ستشتريها .. هل سيمهلها يومين او ثلاثة اذا تقص الثمن بريزة او خمسة صاغ ، ولاد الفلاحين يستاهلهم ناظر الوقف يكسر رقبتهم ، بس احنا يارب الى نعيش طول عمرنا نشترى كيلة بكيلة ، ومايكملش ثمنها ابدا ، يابختهم الى مخزنين الدرة فوق سطوحهم ، وسالت ، بذلة وانكسار وشى بهما رنة صوت كلماتها ولحظة التجمد كالدমে — التى هبت على ملامح وجهها .

— ياراد باشحاته ، قوللى ، كيلة الدرة بكام الايام دى ..
كحلهم بعيد لمع فى مخيلته ، رشاد افندى بركله بطرف حذائه الاحمر الاجلسيه ، امه تخدم فى بيت عائلة السوالم قبل ان يولد شحاته نفسه ، اتولد لاقاها تخدم فى بيت عيلة السوالم .
— ايه الله معاكى ده يابيت يابهانة ..

— ابدا ياستى ، والنبي ، ماخذت حاجة ..
امتدت يد بيضاء بضة تشد فتلة قديمة من لباس بهانة .. يد ثقيلة اوقعت بهانة على بلاط الصالة ، بلاطة بيضاء وبلاطة سوداء ، وقعت ام شحاته فوق البلاط فى المكان الذى يقع بين حجرة النوم وحجرة السفرة فى بيت عائلة السوالم ، لصة لا يتمر فيها المعروف ، بصقة وقعت على انفها ، عصا رشاد افندى تعمل على قفا بهانة ، نطق شحاته ، امه ليست لصة ، شحاته فعل ذلك ، بوز الجسزمة الحمراء الاجلسيه استقر بين اليته فى خبطة شديدة بهتت على اثرها — وبسببها لمعة الحذاء ، الخيزرانة تحولت الى اكثافه ، لص كاهه ، عوى من لسع الخبطات ، انسحب شحاته الى زريبة البهائم ، بهائم

رشاد افندى ، متخلفاً أمه ورائه متكورة ، من بين شفتيها ينسل
خيوط دم احمر ، كومة خيش قديم تن ، تستعطف ، تقسم ، ترفم
يديها بالضراعة الى ست البيت التى تقف منتصبة مغضبة ..
- معلش ياستى ، المسامح كريم ، عمرنا خدامينكم ..
شحاته ينحى بالقهر صورة أمه ، ينحى معها بالبحر صوت
نظيره ..

- واد يا شحاته ، كيلة الدرة بكام ..
كانت قد انطلمت فى حسه صورة نظيرة متحفزة لا يدري لم ،
شرانيه ، لا يدري ام ، مخنوقة ، لا يدري لم .. ساعة ان دخل
عليها ..
- لا خير ولا يحزنون .

.. عاد شحاته يسأل دون ان يجيب متجاهلا السؤال الذى وجهته
نظيرة اليه عن ثمن كيلة الدرة ، بصوت اقرب الى الهمس ..
- بقول لك ، توفيق فين ياست ..

حسبة ثمن كيلة الدرة وممن ستشتريها ، وهل سيمهلها يوما او
يومين ، لاتزال تدور فى دماغ نظيرة .. وهى تعرف ثمن كيلة الدرة
تحديدا ، فى طريقها - كل صباح الى الفيط ، وفى عودتها - كل
مغرب - من الفيط .. وسواء ستشتري ام ان الصفيحة ملانة
بالدقيق .. نسأل عن ثمن كيلة الدرة .. وتكمل فى داخلها .. هل
يرضى ابن ستين كلب هذا ان يعطيها مقدما ، ثمن كيلة الدرة كاملا
على ان توفيها سروحا معه فى ارض عيلة السوالم ..

- وحياة سيدنا النبى ، وحياة سيدى ذى النون ، يا شحاته ،
ه .. اسرح معاك لفاية ما اخلص ثمن كيلة الدرة ، انت عارف انى
جد ، كلمتى واحدة ، اقول .. لك هاسرح معاك ن لفاية ما عيلة
السوالم تخلص جمع ..
- نظيرة ، بللى ربقى .

.. انسلت الى حجرة المعاش امسكت كوز الصفيح ، رفعت سدادة
السلاص ، حزمة حبا البحر ، امالت البلاص ، سندته بركبته ،
ملأت الكوز ، كان شحاته ورائها ، مدت يدها اليه بالكوز ..
- ابقوا اشربوا فى دوركم .

امسك شحاته بكوز الماء ، لم يرفعه الى فمه ، ردد مبتسما جادا
حزنا متوسلا فى همس ..

— بقولك ، بانظيرة ، بللى ويقي ..
.. اخيرا التقطت نظيرة كلمات شحاتة ، شحاته يقذف رغيف
العجين داخل فرن خمدت — نيرانه ، ومافى جوفه غير الرماد ،
ابتسمت .. ضربته على كتفه ..

— ياشيخ احنا فى ايه والا فى ايه ..
مع انها تثنت وابتسمت ونعمت الكلام وضربته على كتفه بالفة ،
لكنها لم تعد الصوت الاول ، مد يده اليها بالكوز ، وهى تأخذه قبض
على معصمها ، اطلقت آهة الم من خشونة اليد ، المسألة كلها
محصورة داخل دماغ نظيرة ، تدبرها بحسابات ثمن كيلة الدرة ،
ومدى قبول شحاته ان يعطيها مقدما ..

— سيب ايدى ياواد ياشحاته يابن بهانة ..
... فى عجلة ، اخرج شحاته — مقاول الانفار بعيلة السوالم —
اجرة جمعة كاملة ، وضعها على قالب طوب احمر منزوع من جدران
سراية عيلة الناظر ، فى العتمة رصدت عينها الفلوس ، تنقل بصرها
بين الفلوس على قالب طوب سراية توفيق سليل عيلة الناظر ، وبين
وجه شحاته بالسهم الذى حط عليه .. الشفقة تأخذها من اجل
شحاته ، قالب الطوب فى استطالة وجه توفيق ، اذناها تلتقط ..
— اجرتك سبعة ايام ، ثمن كيلة الدرة ، ووهبة الطحان ..
... بعد دة ، نظيرة تستعد لنزال بدنى لا تخشاه ، انتهت لحظة
الازل الربيعية ، اللحظة التى احست فيها نظيرة بعزلتها مع
شحاته ..

... لحظتها كان شحاته مجرد مقاول انفار لجمع القطن فى غيط
عيلة السوالم ...

المفسرون

تأليف

وول سوينكا

الفائز بجائزة نوبل في الادب لعام ١٩٨٦

ترجمة

محمد عباس جلال

تصدر : ١٥ يناير ١٩٨٧

رقم الإيداع : ٨٦ / ٧٤٤٢
الترقيم الدولي : ٢ - ٢٧٢ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

الكويت: السيد عبدالعال بسيوني زغلول
الصفحة - ص ب رقم ٢١٨٢٣
تليفون ٧٤١١٦٤

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

اشترك
في
روايات
الهلال

هذه الرواية

عبقريّة الريف .. هي عبقرية ابداع محمد روميش
هذا هو أبسط المداخل .. لهذه الرواية
روميش ابن الأرض .. واديمها ورائحتها
أو كما قال عنه الاستاذ يحيى حقي :

« .. من قصص روميش أشم رائحة تراب القرية .. وارى
أهلها أحياء وعلى المستوى الانساني لا المحلي فحسب ،
وقد بقيت في ذهني من قصصه صورة امرأة قروية لن
انساهها . هذا هو الامتحان الكبير للكاتب ، أن تدب في
شخصياته نبض الحياة وسمّة التخصص والانفراد بحيث اذا
ذكر الكاتب ذكرت على الفور أسماء هذه الشخصيات ، اذا
قلت مثلا عطيل أو هاملت قلت على الفور شكسبير ، والعكس
صحيح » .